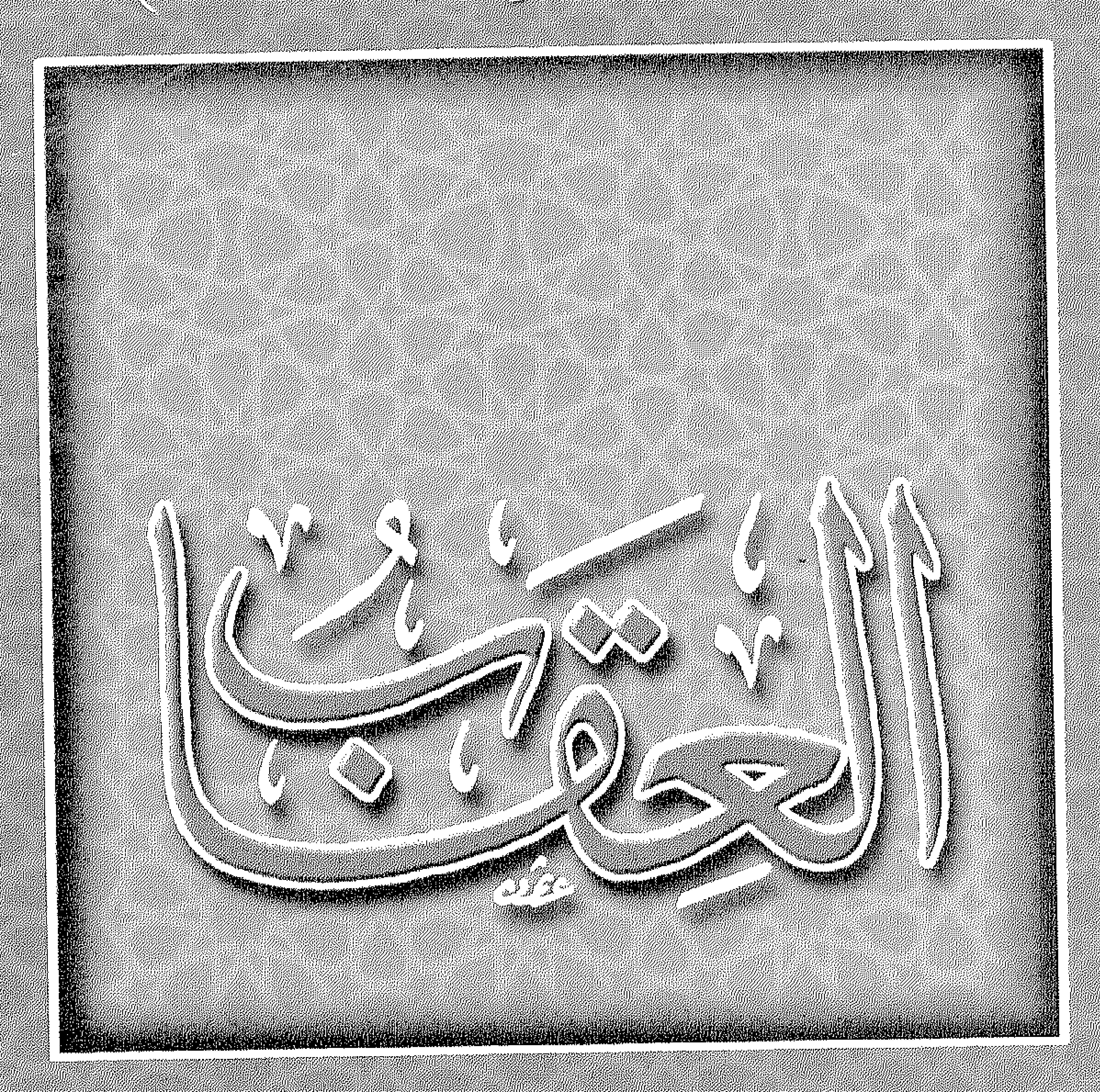
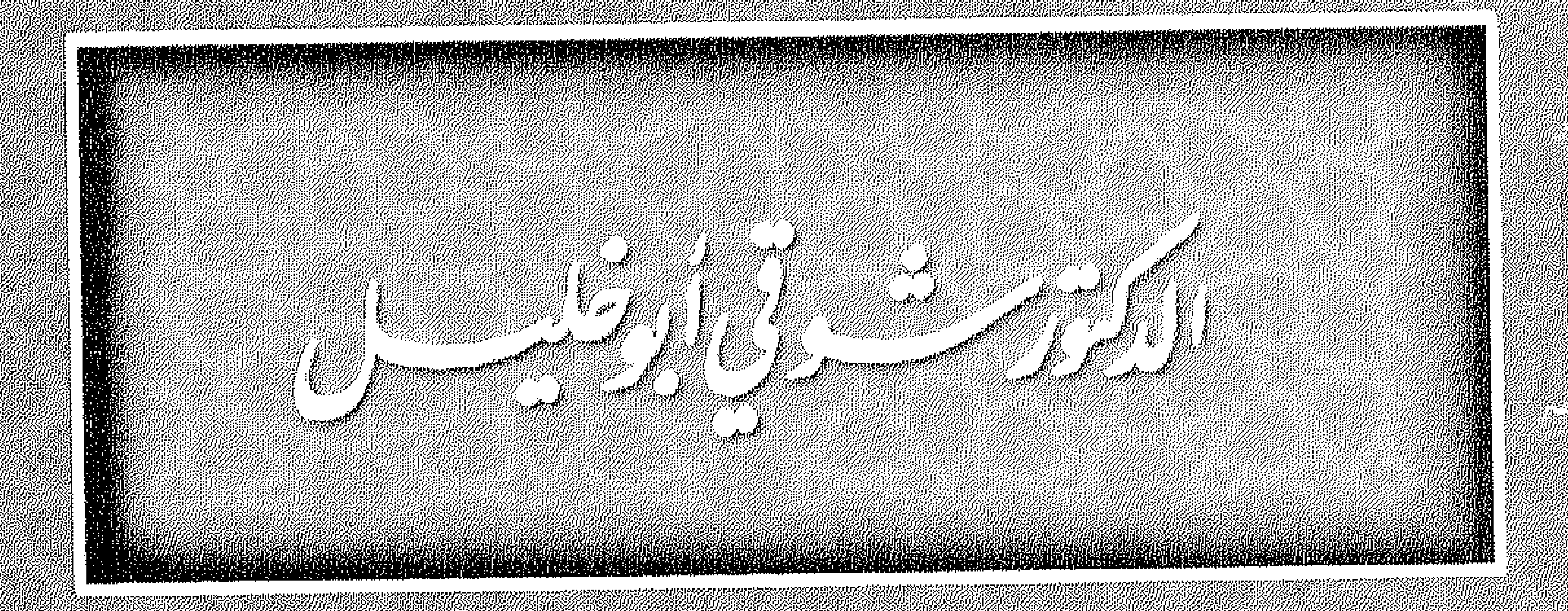
المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام

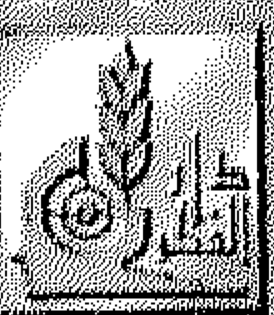


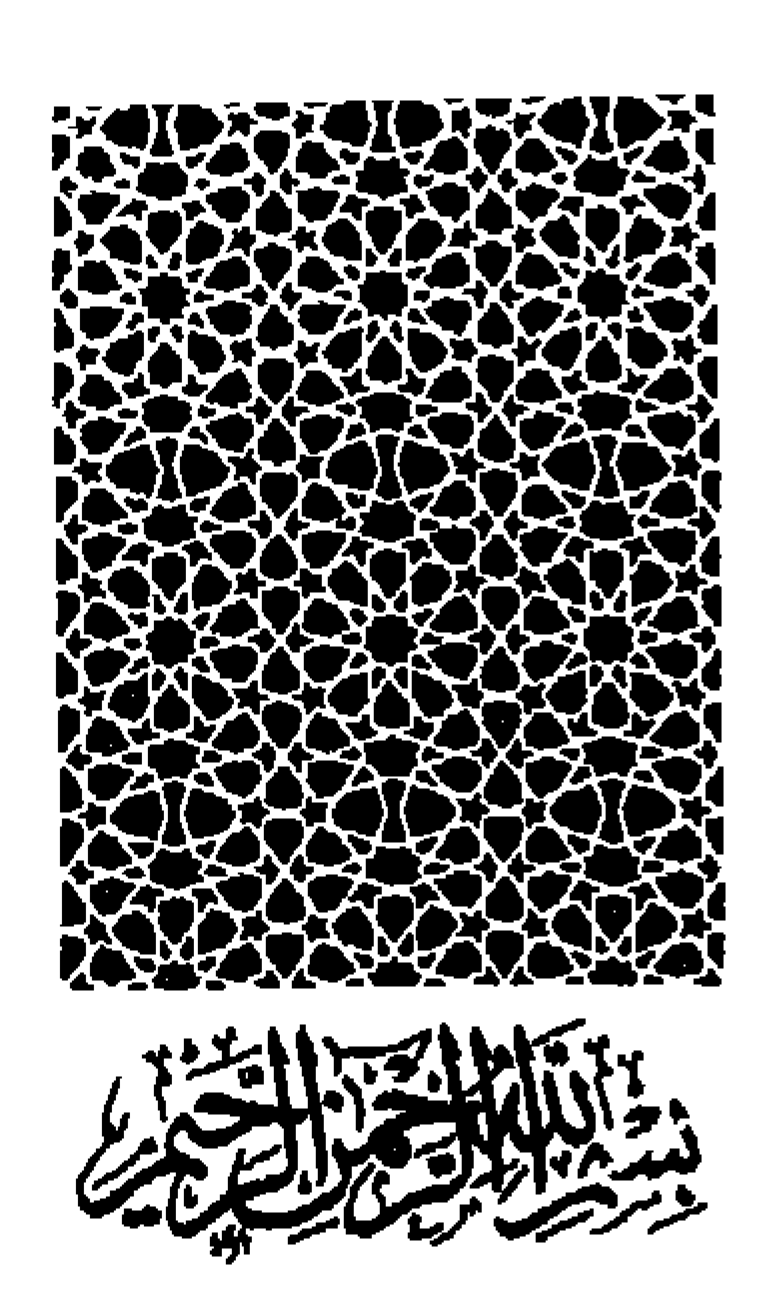
العقاب

بقيادة محمد الناصر بن المنصور يعقوب الموحدي



الدكتور شوقي أبو خليل





غزوة العقاب

بقيادة محمد الناصر بن المنصور يعقوب الموحدي

العقاب: بقيادة عبد عبد الله محمد الناصر/ شوقي أبو خليل . -
دمشق: دار الفكر، ١٩٩٨ . -٧٥: مص ٢٠سم . - (المعارك الكبرى
في تاريخ الإسلام)
صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٧٩ .
١- ٩٥٦,٠٧١ خ ل ي ع ٢- العنوان ٣- أبو خليل ٤- السلسلة
مكتبة الأسد
ع- ١٩٩٨/٢/٣٣٩

الدكتور شوقي أبو خليل

العقاب

بقيادة محمد الناصر بن المنصور يعقوب الموحدي

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

الرقم الاصطلاحي للسلسلة: ٣٠٠٥
الرقم الاصطلاحي للحلقة: ٠٦٠٨,٠٣١
الرقم الدولي للسلسلة: ISBN: 1-57547-500-6
الرقم الدولي للحلقة: ISBN: 1-57547-505-7
الرقم الموضوعي: ٩٣٠
الموضوع: تاريخ العرب والإسلام
السلسلة: المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام
العنوان: العقاب
التأليف: د شوقي أبو خليل
الصف التصويري: دار الفكر – دمشق
التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية– دمشق
عدد الصفحات: ٨٠ صفحة
قياس الصفحة: ١٤ × ٢٠سم
عدد النسخ: ١٥٠٠ نسخة



دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق–سورية
فاكس: ٢٢٣٩٧١٦
هاتف: ٢٢٣٩٧١٧ – ٢٢١١١٦٦
http://www.fikr.com/
e-mail: info@fikr.com

إعادة
١٤٢٢هـ = ٢٠٠١م
ط٤: ١٩٩٣م

تصـــدير

✶ قيل : « رُبَّ هِمّةٍ احيَت امّة »،
ونقول : « رُبَّ تقاعُسٍ امَاتَ امّةً » .

بســم الله القــائل في محكم التنــزيل : « **لِكُلِّ أمّةٍ أجَلٌ إذا جـاءَ أجَلُهُـم فـلا يستأخِرونَ سَاعـةً ولا يَسْتَقدِمُونَ**[1] » .
وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، وبعد :

* ضم الموحّدون الأندلس المسلمة الى دولتهم التي أضحت أيام عبد الله محمد الناصر ، مترامية الأطراف ، حتى بلغت شرقاً حدود مصر . والأسباب التي دعت المرابطين الى التــدخّل في الأندلس ، هي ذاتها التي دعت الموحّدين الى التدخل ، وهي :

١ ــ جهاد الاسبان ، واضعاف قوتهم حتى يُدْفع أذاهم عن المسلمين .

٢ ــ حماية المسلمين ــ إخوة العقيدة والدين والوطن ــ ورعاية مصالحهم بطلب منهم .

٣ ــ اكتساب نفوذ سياسي وروحي ، وسمعة طيبة عطرة ، برفع لواء الاسلام في الأندلس .

---

(١) سورة يونس ، الآية الكريمة : ٤٩ .

ولقد بدأ تدخّل الموحّدين في الأندلس منذ عهد عبد المؤمن سنة ٥٤٣ هـ بفتحه قرطبة ، ثم بفتح غرب الأندلس سنة ٥٥٥ هـ ، وضم باجة ويابرة وبطليوس . ثم ضُمّ شرق الأندلس سنة٥٦٧هـ بعد القضاء على فتنة ابن مردنيش وقتله . وفي سنة ٥٨٠ هـ كانت موقعة شنترين ، التي استشهد على اثرها أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن .

ثم هاجم الموحّدون غرب الأندلس ثانية أيام يعقوب المنصور ، ولكنهم لم يحققوا نتيجة تُذْكر ، حتى كانت معركة الأرك[1] التي أوقفت زحف الإسبان نحو عشرين سنة .

ثم كانت وقعة العقاب سنة ٦٠٩ هـ ــ التي نحن في صدد عرضها في هذا الجزء من المعارك الكبرى في تاريخ الاسلام ــ والتي توالت بعدها الهزائم على الموحّدين ، حتى فقدوا السيطرة على الأندلس في عهد ادريس المأمون سنة ٦٢٧ هـ[2] .

ولم يكن الموحّدون أقل حماساً في حروبهم في الأندلس من المرابطين ، إلا أنهم كانوا يحاربون في جهات مختلفة من المملكة ، ومن ضمنها افريقية والجزر الشرقية ــ كما سنرى ــ ، بالإضافة الى قوة الإسبان الجديدة ، الذين باتوا يستنجدون بقوات هائلة من الأوربيين الصليبيين ، بينما كانت الممالك الإسبانية تتحد في أوقات الخطر ضد المسلمين .

---

(١) التي فصلنا احداثها في الجزء التاسع من هذه السلسلة .

(٢) راجع للتوسع كتاب الاستاذ ابراهيم حركات « المغرب عبر التاريخ » ، ج : ١، ص : ٣١٦ وما بعدها .

هذه نقطة أحببت توضيحها في هذه المقدمة وبقيت نقطتان :

١ ـ كان المرابطون بحق أقوى دولة إسلاميـة في أوائل القرن السادس الهجري ، ومع ذلك تحاشوا ادعاء الخلافة ، وبايعوا طائعين خليفة بغداد العباسي •

ولكن الموحدين نظروا الى الظروف السياسية في العالم الاسلامي، فاعلنوا أنفسهم خلفاء منذ عهد عبد المؤمن سنة ٥٢٩ هـ ، وسبب ذلك ضعف الخلافة في بغداد ، وتضعضع ثم انهيار الخلافة الفاطمية في القاهرة •

وكما فعل العباسيون من قبل من تسمية رؤسائهم في بداية أمرهم ودعوتهم بالأئمة ، والفاطميون عند نشأتهم أيضاً ؛ فعـل الموحِّدون أيام المهدي بن تومرت ، فَلُقِّب بالإمام ، ليترك لقب « أمير المؤمنين » لعبد المؤمن •• واستمر هذا اللقب حتى نهايـة دولة الموحِّدين •

٢ ـ والنقطة الثانية والأخيرة ـ في هذه المقدمة ـ هي :

أخـذ الموحِّدون نُظماً كثيرة من نظم المرابطين ، فنظـام القضاء الموحِّدي كان نسخة طبق الأصل من نظام المرابطين ، والجيش كان كجيش المرابطين ، أضيف إليه عنصر جديد ، هـو العرب الذين استقدمهم المنصور •

واعتني بالأسطول كما اعتني به أيام المرابطين ، وامتـاز الموحِّدون بإقامة دور صناعة له ، حتى بلغت قِطَعُه أربعمائة قطعة ، موزعة بين أهم موانىء المملكة ، في الأندلس شرقها وغربها، وفي الجزائر ، وفي سواحل الأطلسي •

ومن قطعه : المراكب ، والحرّاقات حاملة النفط المشتعل ، والمسطّحات الضخمة التي تجري وراء السفن الصغيرة لانقاذها حين الخطر ، والزوارق ، والشلنديات لحمل الأسلحة والمجاهدين. الطرّادات السريعة جداً ، والشونات حيث ابراج الدفاع العالية.

وعلى العموم شهد عهد الموحّدين نهضة اقتصادية عظيمة، حتى اعتُبِروا أهل صناعة ، واستخرجوا الحديد والتوتياء والنحاس والكبريت والزئبق[1] . وسببت صناعة الورق ازدهاراً في حركة التأليف والنشر . كما قدّمت معامل النسيج أجود وأفخر الثياب.

ولم ينسَ الموحّدون الزراعة ، فأكثروا من زراعة الأراضي التي كانت مهجورة ، كما أكثروا من زراعة الزيتون ، والأشجار المثمرة ، وازدهرت حركة النشاط التجاري أيضاً .

وهـذه الحالة الاقتصادية المتقدّمة ، لم تكن في المغـرب الأقصى فقط ، بل عمّت أرجاء مملكة الموحّدين كلها (الأندلس مع افريقية) .

وعني الموحّدون بالعمارة ، دون التخلّص من التأثير البربري كسابقيهم المرابطين ، فحافظوا على عنصري القوة والضخامة في مبانيهم ، متأثرين ـ الى حـد ما ـ بالفن الأندلسي مـن حيث الزخرفة ، وبالفن المصري والعراقي ، اللذين عبرا إليهما خـلال القيروان .

---

(١) للاطلاع على اماكن المناجم في انحاء مملكة الموحدين راجع « المغرب عبـر التاريخ » ، ج : ١ ، ص : ٣٥٦ .

واهتم الموحّدون بانشاء المدن ، وبخاصة التي لها صفة حربية كرباط الفتح وتازا ، واهتموا ببناء الموانىء والحصون والقناطر والمساجد والمدارس والمستشفيات ، كما بنوا مرصداً في اشبيلية ، وبرج الكوكب في مدينة فاس .

ويمثل عصر الموحّدين ذروة النشاط الفكري في المغرب ، حيث أمّهم كبار العلماء والأدباء من القيروان والأندلس. ومكنتهم موارد الدولة من الاغداق بسخاء على طلاب العلم ، فبنى الموحدون لهم المعاهد ، والمعاهد العليا للتخصص ، ووضعوا تحت تصرفهم مكتبات ضخمة .

وكان من بين ملوك الدولة الموحدية علماء أدباء كعبد المؤمن والمنصور وادريس المأمون ، لقد كانت مجالسهم مجالس علم وأدب وسياسة .

لذلك رعى بلاط الموحّدين عبد الواحد التميمي المراكشي، وأبا بكر بن زهر ، وابن رشد الحفيد ، وأبا بكر بن الطفيل ، وأبا الوليد الشقندي ... حتى أن الخلفاء الموحّدين طلبوا العلماء الى منازلهم ، فكان ابن الطفيل يقيم الأيام بلياليها عند أبي يعقوب المنصور[1] ..

هذا التقدم العلمي ، وهذه العظمة .. ستكون موقعة العقاب

(١) ولا نعني هنا « علماء الدين » فقط ، بل ضم الموحدون اليهم علماء كثيرين في مختلف العلوم كالفلك ، والرياضيات ، والهندسة ، وعلماء صناعة .. راجع « المغرب عبر التاريخ » ج : ٢ ، ص : ٣٧٢ وما بعد للتعرف على اسماء عشرات العلماء من مختلف الصنوف .

سنة ٦٠٩ هـ بداية نهايتها وهي التي سنقرأ أحداثها مفصلة في هـذا الجزء العاشر من « المعارك الكبرى في تاريخ الاسلام » .

ستبدأ النهاية بسبب الهزيمة المرّة التي لقيها الموحّدون في « **العِقَـاب** » ، مع أن الكثرة لم تنقصهم ، والعَدَد لم تنقصهم .. وبخاصة ونحن نعلم أن تاريخنا الاسلامي سجل لنا انتصـارات القلة المؤمنة على الآلاف بمؤن وذخيرة يسيرة . فمـا بالنـا في « العِقَاب » نرى كثرة أبي عبد الله محمد الناصر تحقق الهزيمة ؟

لا شك .. أن خللاً وقع بين الصفوف ، وخرقاً لقوانين الإسلام ارتكبه الموحّدون في « العِقَاب » إنه « بطانة السوء » أو « حاشية الخبث » متمثّلة بالوزير أبي سعيد عثمان بن عبـد الله بن ابراهيم بن جامع .

ولأمر أراده الله سبحانه .. شاء أن تكون عوامل سقوط الموحّدين مشابهة لسقوط المرابطين .. صحيح أنه سبحانه وتعالى وهب الدولتين قادة عظاماً موهوبين ، حققوا انتصارات خالدة ، بيد أنه ما كادت العوامل التي حركت هذه الشعوب يغيض معينها، وما كادت حماستها تخبو وتفتر هممهم الحربيـة ، حتى انهارت هاتان الدولتان العسكريتان ، بمثل السرعة التي قامتا بها .

فالى « العقاب » أحداثاً وعبرةً ، معتمدين على فضل الله وتوفيقه، فهو سبحانه من وراء القصد .

شوقي أبو خليل

ص.ب : ٦٢٢٣

دمشق ـ سورية

الشام : ٢ رجب الفرد ١٣٩٩ هـ

الموافق : ٢٨ أيـار ١٩٧٩ م .

ثورة ابن غانية

★ حكموا جزر البليار أيام المرابطين ، وعبروا الى افريقية أيام الموحدين : وقاموا بثورة لم تنته الا بعد معركة العقاب ، أيام المستنصر الموحدي •

شَغَلَ محمد الناصر عند استلامه حكم الموحدين ـ كما شَغَلَ أبوه يعقوب المنصور من قبل ـ بثورة آل غانية • فمن آل غانية هؤلاء ؟ وكيف حكموا جزر البليار ؟ وكيف قاموا بثورتهم في إفريقية فحكموا تونس وغربي ليبية وشرقي الجزائر وأواسطها؟

وجّه علي بن يوسف بن تاشفين أيام حكم المرابطين الملثمين رجلين الى الأندلس ، اسم أحدهما يحيى ، والآخر محمد ابني علي من قبيلة مسوفة يعرفان بابني غانية وهي أمهما ، كان يحيى ، وهو الأكبر من أخيه محمد ، حسنة من حسنات الدهر ، اجتمع له من المناقب ما افترق في كثير من الناس ، منها أنه كان رجلاً صالحاً شديد الخوف من الله عز وجل ، والتعظيم له والاحترام للصالحين، هذا مع علو قدم في الفقه ، واتساع في رواية الحديث •

وكان مع هذا شجاعاً فارساً إذا ركب عُدّ وحده بخمسمائة

فارس . وكان علي بن يوسف بن تاشفين الملثمي يعده للعظـائم ويستدفع به المهمات ، وأصلح الله على يديه كثيراً مـن جزيرة الأندلس ، ودفع به عن المسلمين غير مرة مكاره كانت قد نزلت بهم ، منها انقاذ مدينة فراغة في شمال شرق الأندلس عام ٥٢٩ هـ من ألفونسو ملك أراغون ، بعدما احتل هـذا سرقسطة وتطيلة وقلعة أيوب .

ولـّى عليُّ بن يوسف بن تاشفين يحيى بن غانية مدينة بلنسية، ثم عزله عنها ليوليه قرطبة ، فلم يزل بها والياً الى أن مات ، وبموته كانت أول الفتنة على المرابطين ، فبدأ أخوه محمد بن غانية يجول الأندلس والفتنة تتزايد ، ودعوة الموحدين تنتشر ، ولما اشـتد خوف محمد بن غانية ، وصل مدينة دانية وعبر عنها الى جزيرة ميورقة مع حرسه وأهل بيته ، فملكها ، ثم ملك كل جزر البليار « منورقة ويابسة مع ميورقة » .

ضبط محمد إمارة جزر البليار تحت سلطة المرابطين ، داعياً للخلافة العباسية . وبعد محمد ملك ابنه اسحاق ، فأمّه بقـايا المرابطين ، فأحسن إليهم وأكرمهم حسب طاقته .

واقبل اسحاق بن محمد بن غانية على الغزو ، وصرف عنايته إليه ، فلم يكن له هم غيره ، فكان له في كل سنة سفرتان الى بلاد الروم ــ جنوب فرنسة وشمال غرب ايطالية ــ فيغنم وينكي في العدو أشد نكاية ، فقوي بذلك أمره ، وتشبّه بالملوك ، ولم تزله هذه حاله الى أن توفي سنة ٥٧٩ هـ ، في أواخر أيام أبي يعقـوب يوسف بن عبد المؤمن الموحّدي .

ومما يذكر أن اسحقَ هذا كان يراسل الموحّدين ويهاديهم يشغلهم بذلك عنه ، فلم يلتفت الموحّدون الى جزر البليار باهتمام يذكر ، فلما كانت سنة ٥٧٨ هـ ، كتبوا إليه يدعونه الى الدخول في طاعتهم والدعاء لهم على المنابر ويتوعدونه إن لم يجبهم الى طلبهم، فوعدهم بذلك ، واستشار وجوه أصحابه فاختلفوا عليه ، فمن مشير عليه بالامتناع بمكانه في جزر البليار ، وحاضٍّ له على الدخول فيما دعوه إليه ، فلما رأى اختلافهم أرجأ الأمر الى أجل غير مسمًّى .

وخرج الى بلاد الروم غازياً ، فاستشهد هناك ، وكان له من الولد علي وهو أكبر ولده والقائم بأمره من بعده ، وعبد الله ، ويحيى ، وأبو بكر ، وسير ، وتاشفين ، ومحمد ، والمنصور ، وابراهيم[1] .

ولما توفي اسحاق بن محمد قام بالأمر من بعده ابنه علي بعهد أبيه إليه ، وخرج بأسطول ميورقة الى العدْوة ــ في المغرب ــ وقصد مدينة بجاية حين راسله جماعة من أعيانها يدعونه الى أن يملكوه ، ولولا ذلك لم يجسر على الخروج الى المغرب الأوسط ، ومما جرّه أيضاً كون الموحدين في حروب بالأندلس ، وسماعه خبر موت أبي يعقوب المنصور الموحّدي ، واشتغال الموحّدين ببيعة أبي يوسف ، فظن أن الأمر سيضطرب ، وأن الخلاف سينشأ .

---

(١) توفي ابراهيم هذا بدمشق حين كان نازلا بها على السلطان الملك العادل .

فكان هذا أيضاً مما أعانه وشدّه الى الخروج ، فقصد ساحل بجاية ، فنزل به ، فملك بجاية بعد قتال لا يذكر[١] .

وكان في المدينة إذ دخلها أبو موسى عيسى بن عبد المؤمن ماراً بها حين رجع من افريقية[٢] ، وكان واليها أبو الربيع سليمان ابن عبد الله بن عبد المؤمن . لقد كان أبو موسى ببعض نواحي افريقية يقود جيشاً من المصامدة مع أخيه أبي علي يحاربان الأعراب ، فأسرا ، وفكهما أبو يعقوب المنصور بفدية ، فخرجا من أسر الأعراب الى أسر علي بن اسحاق بن غانية .

وفي بجاية دعا علي بن اسحاق بن غانية لبني العباس ، وخرج منها بعد أن هيّأ أموره فيها ، واحتل نواح كثيرة بعد إثارته الفتنة في أرض تونس ، فأخذ بلاد الجريد ، واستولى على قفصة[٣] ، فخرج اليه يعقوب المنصور الموحدي ، قاصداً بجاية ، فنزل يعقوب المنصور بالقرب من بجاية ، فتلقاه أهلها ، فلقيهم منشرح الصدر ، ظاهر البشر ، وقال لهم من القول مابسط به نفوسهم ، ورد إليهم أنسهم ، وقد كانوا يظنون غير ذلك ، فخرجوا من عنده متعجبين مما رأوا منه وسمعوا ، واستعاد بجاية ، واستعمل عليها رجلاً من أعيان الموحّدين هو محمد بن أبي سعيد الجنفيسي . ثم سار

---

(١) راجع « من كتاب المعجب في تلخيص اخبار المغرب ـ دولة الموحدين ـ » ، صفحة : ١٦١ ، وما بعدها .

(٢) نعني بافريقية هنا : غربي ليبية وتونس كلها وغربي واواسط الجزائر ، راجع مصور « دولة الموحدين في أوج اتساعها » .

(٣) حكم ابن غانية بلاد الجريد والقيروان وصفاقس وقابس وتبسة وطرابلس . ودعا فيها للعباسيين .

باتجاه الشرق قاصداً تونس ، فجمع ابن غانية الملثمين والأعراب ، وجاء معه قراقوش الغُزِّي[1] صاحب طرابلس الغرب .

ملك المنصور تونس ، وسيَّر منها جيشاً كثيفاً لقي جيش علي بن غانية ومن معه من الأعراب والبربر ، فانهزم الموحِّدون بقيادة عمر بن عبد المؤمن ، واتبعتهم الأعراب والبربر يقتلونهم في كل وجه ، وهلك قسم منهم عطشاً ، ورجعت بقيتهم الى تونس حيث أمير المؤمنين المنصور الموحدي ، فلمَّ شعثهم ، وجبر ماوهى من أحوالهم ، وخرج هو بنفسه حتى لقي علي بن غانية وقراقوش الغزي ، بموضع يعرف بالحامة « حامة تقيوس »[2] ، فما وقف أصحاب علي بن غانية إلا يسيراً حتى انكشفوا عنه ، وأبلى هـو عذراً فأثخن جراحاً ، وخرج فاراً مع قراقوش الغزي ، ولكنه مات في خيمة لعجوز أعرابية .

وكان حين خرج من ميورقة ، خرج معه من اخوته عبد الله ويحيى وأبو بكر وسير ، فبقي هؤلاء المذكورون بعد موت أخيهم علي مع أصحابهم ، ثم رأوا أن يقدموا عليهم يحيى لما رأوا مـن شجاعته ، فقدَّموه ، ثم لحقوا بالصحراء .

وعاد المنصور الموحِّدي الى تونس ، وعقد فيها لأبي زيد ، وقفل الى المغرب سنة ٥٨٤ هـ ، ومر بالمهدية وتاهرت وتلمسان ، وعقد لأبي الحسن بن أبي حفص على بجاية ، ولما قصد يحيى بن

---

(١) الغز : يقصد بهم الترك .

(٢) قرب توزر الحالية الى الشرق من خليج قابس على مقربة من حدود الجزائر الحاليـة .

غانية قسنطينة ، زحف إليه أبو الحسن بن أبي حفص من بجاية ، فهزم يحيى بن غانية الذي حكم من حدود ليبية الغربية حتى أواسط الجزائر خلا قسنطينة وبجاية ، مستغلاً انشغال الموحدين بحروبهم في الأندلس .

واحتل يحيى بن غانية أيام محمد الناصر بن المنصور الموحدي قسنطينة ، وحصّن المهدية[1] ، وفي الوقت ذاته ، ثار من كزولة عام ٥٩٨ هـ أبو قفصة ، فسرّح محمد الناصر إليه عساكر الموحّدين ، فقصدوا جموعه فانتصروا عليه[2] .

وفي أيام محمد الناصر أيضاً دعا بالمهدية محمد بن عبد الكريم الرجراجي لنفسه، ونازع ابن غانية والموحدين الأمر، ونزل تونس وعاث في قراها سنة ٥٩٦ هـ ، ونازل ابن غانية بفاس ، فامتنع عليه ، وكان محمد بن مسعود البلطي من أشياعه فانتقض عليه ، وراجع ابن غانية الذي اتيح له الظهور على محمد بن عبد الكريم الرجراجي ، وقصده وهو على قفصة فهزمه واتبعه الى المهدية ، فنازله بها ، وبعث الى صاحب تونس يطلب منه مدداً بحرياً يعينه ، فضاقت حال ابن عبد الكريم الرجراجي ، فسأل الأمان من ابن غانية فأمّنه وخرج إليه ، واستولى ابن غانية على المهدية سنة ٥٩٩ هـ .

تجاه هذه الأحداث سيّر محمد الناصر اسطوله مع عمه

---

(١) راجع المصور لمعرفة موقعها بين سوسة وصفاقس على ساحل تونس الشرقي.
(٢) ابن خلدون ، جـ : ٦ ، ص : ٢٤٤ .

أبي العلا ، وسار الناصر مع عساكره براً حتى نزل تونس ، فما استعصى عليه بلد من بلادها خلا المهدية ، التي أضحت تحت سلطة ابن غانية كما مرّ معنا[1] .

لقد حشد محمد الناصر جميع قواته ليضع حداً لابن غانية، وليحول دون تقدم ثورة ابن غانية التي تهيّأ لها قائد كبير ، وافر الخبرة بفنون الحرب ، وبالفعل لم يوفّق ابن غانية منذ مجيء محمد الناصر الى تونس ، فقد أفل نجمه نهائياً ، وكانت هذه الثورة آخر محاولة له ، توالت بعدها الهزائم فلم ينهض بعدها ، وسقطت المهدية آخر معقل لابن غانية على الساحل التونسي بعد حصار أربعة أشهر ، وأذعنت لهجمات محمد الناصر بالرغم من مناعتها ، واستبسال ابن غانية في الدفاع عنها ، وسقطت أمام هجمات الموحّدين العنيفة ، فقد سلطوا عليها من آلات الحصار والمنجنيقات ، ما لم ير من قبل ضخامة وإحكاماً ، وأخذوا يرمونها كل يوم بمئات من الأحجار الكبيرة والكرات الحديدية ، ويدكون بذلك أسوارها دكّاً ، وعفا محمد الناصر عن أهل المهدية عفو الكرام ، وهذه أخلاق محمديّة ، تذكرنا بقول رسول الله ﷺ لقريش بعد فتح مكة : « ما ترون أني فاعل بكم » ؟

فقالوا : « خيراً ، أخٌ كريم وابن أخٍ كريم » .

---

(1) يذكر المؤرخون ان الموحدين نازلوا ابن عبد الكريم الرجراجي قبل استيلاء ابن غانية على المهدية ، فادعى بانه حافظ المهدية من العدو ابن غانية ، ومقر بسلطة الموحدين ، وبالطبع .. هذا ادعاء !؟

فقال ﷺ : « اذهبوا فأنتم الطلقاء »[1] .

وهكذا سقطت المهدية ، بعد أن استنفذت كل وسائل الدفاع ، واستسلمت الى محمد الناصر عام ٦٠١ هـ / ١٢٠٥ م .

إن تسامح سلطان الموحّدين محمد الناصر ، شجع ابن غانية على الثورة من جديد ، فلم تمض ثلاثة أعوام حتى تزعّم يحيى ابن اسحاق بن غانية جموع الثوار مرّة أخرى ، وقد لقيت رفداً كبيراً بانضمام الناقمين من قبيلة زناته . وهزم الموحّدون ابن غانية مرة ثانية ، وكاد جيشه أن يُسْحَق عن آخره ، وفرّ يحيى ناجياً بنفسه .

ورأى محمد الناصر أن يعمل على استئصال شأفة ابن غانية نهائياً ، فأرسل حملة بحرية الى جزيرة ميورقة حيث كان عبد الله ــ أخو يحيى بن اسحاق بن غانية ــ يتولى الحكم فيها . وتمكنت قوات محمد الناصر من احتلال عاصمة الجزيرة ، ومن قتل عبد الله ، ولم تبد الجزيرتان الصغيرتان منورقة ويابسة أية مقاومة ، بل خضعتا للفاتحين سنة ٦٠٤ هـ / ١٢٠٨ م ، وتعاطفتا مع الموحّدين .

وهكذا انهارت الأنقاض الأخيرة لبقايا المرابطين ، المتمثلة بثورة ابن غانية ، ولم يزل محمد الناصر في افريقية يصلح ما أفسده ابن غانية ، الى أن تم له ما أراد من ذلك ، حيث ملك من حدود

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ، ج : ٤ ، ص : ٤١ .

طرابلس الغرب ، مروراً ببلاد الجريد والقيروان وصفاقس وقابس وتونس .. وانتظمت له أعمال افريقية ، وجعل على المهدية محمد بن يغمور الهرغي ، وعلى طرابلس الغرب عبد الله بن ابراهيم بن جامع ، ثم عاد الى مراكش بعد أن ترك من الموحدين وأصناف الجند مايقوم بحماية حدود دولة الموحّدين الشرقية، ويذود عنها مَنْ رامها ، وجعل الحاكم الأعلى هناك أبا محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص عمرانيتي من أشياخ الموحدين ، وكانت عودة محمد الناصر الى مراكش سنة ٦٠٤ هـ .

وحاول ابن غانية سنة ٦٠٥ هـ إثارة الفتنة ثانية مقترباً عبر الصحراء من تلمسان ، ولكن المدّد الموحّدي هزمه ، واستولى الموحّدون على عتاد جند ابن غانية ، الذي لحق بجهات شرق طرابلس الغرب ، ومنذ ذلك الحين خبا حكم ابن غانية في افريقية وتلاشى تقريباً[1] ، فوجه محمد الناصر جهوده الى الأندلس ، لكي يرفع فيها راية الاسلام عالياً ، بعد أن خلّد ذكره بأعمال عمرانية عظيمة فخمة في المدن المغربية .

❋ ❋ ❋

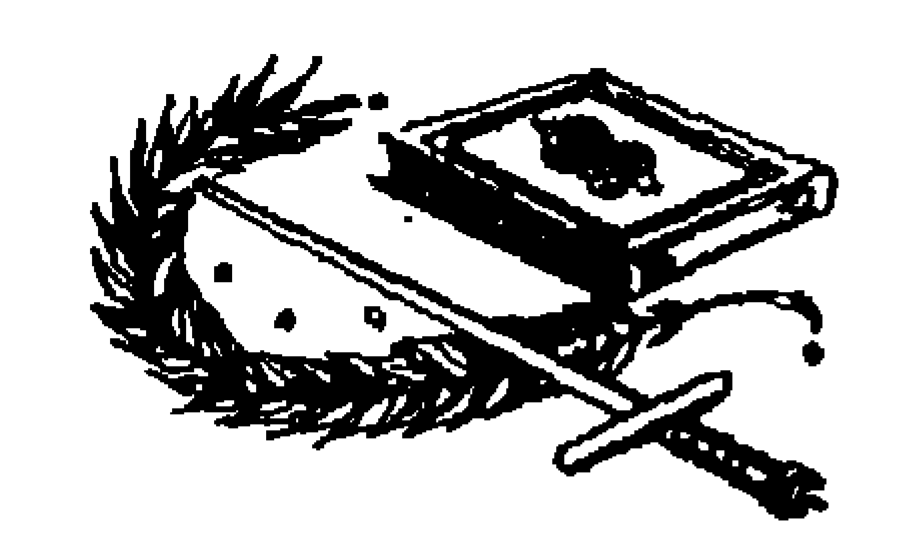
تضعنا هذه الثورة التي بدأت منذ أفول نجم المرابطين ، والتي استمرت حتى عهد محمد الناصر أمام احتمالين :

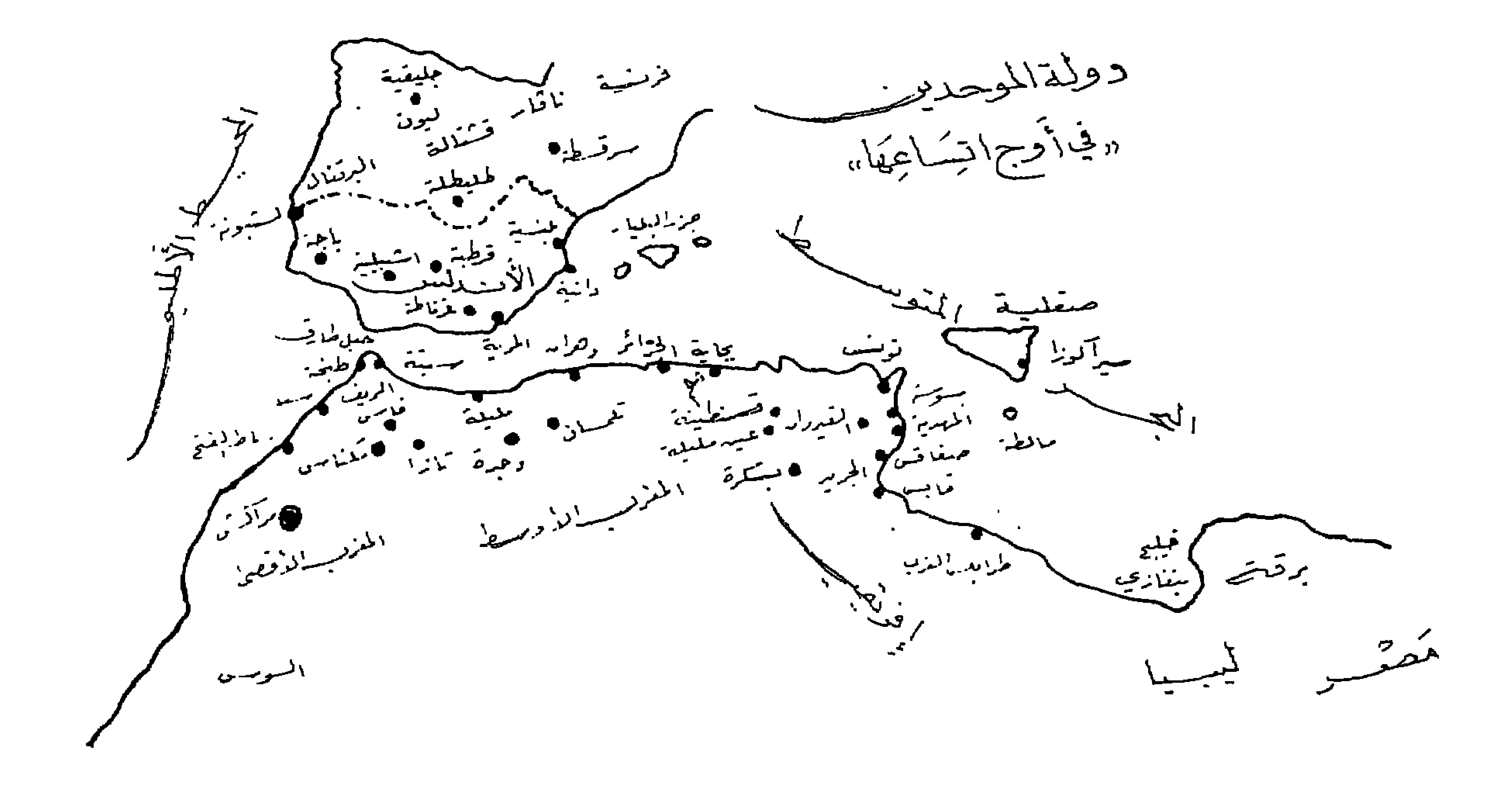
---

(١) سيقضي على ابن غانية نهائيا المستنصر الموحدي قرب بلدة « مليانة » ، كما سيمر في نهاية الكتاب .

١ً ــ الاحتمال الأول : أنها اخلصت بصدق للوحدة الاسلامية ، فحاربت الموحّدين الذين قاسموا الدولة العباسية الخلافة ، فتسموا بإمرة المؤمنين ، وهذا ما لم يتسمّ به المرابطون، فأظهرت الثورة دعوتها للخلافة العباسية التي لم تعبأ بهم لضعفها آنذاك •

٢ً ــ والاحتمال الثاني: **أنها ثورة ابتغت تأسيس إمارة وراثية ،** كسبت قوتها من ادعائها أنها استمرار" للمرابطين الذين كسبوا سمعة طيبة عطرة بسبب اخلاصهم الصادق لإسلامهم ، ولكن الثورة فشلت أمام ضربات الموحّدين القويّة والمركزة ، فلم تكتب لها حياة ، ونحن نرجح هذا الاحتمال الثاني •





دولة الموحدين
«في أوج اتساعها»
فرنسة
جليقية
ليون
نافار
قشتالة
سرقسطة
البرتغال
طليطلة
الأشبونة
باجة
بلنسية
قرطبة
اشبيلية
الأندلس
غرناطة
دانية
جزر البليار
صقلية
المتوسط
البحر
سيراكوزا
مالطة
المحيط الأطلسي
جبل طارق
طنجة
سبتة
الريف
فاس
مكناس
تازا
وجدة
مليلة
تلمسان
وهران
الجزائر
بجاية
قسنطينة
القيروان
بسكرة
الجريد
تونس
سوسة
المهدية
صفاقس
قابس
طرابلس الغرب
خليج بنغازي
برقة
ليبيا
مصر
مراكش
المغرب الأقصى
المغرب الأوسط
السوس

الأنـدلس
قبيل عبور الناصر إليها

✱ اعتـدى القشتاليون على الاراضي الاسلاميـة في الاندلس ، فاحرقوا وخربوا وسبوا .. فاعلن محمد الناصر الجهاد ، وجاز بنفسه الى الاندلس .

عاون القشتاليون الفرنسيين على محاربة الانجليز سنة ١٢٠٤م، وبعد أن عقد الفرنسيون والانجليز الصلح بتدخل وتوسّط البابا، أخذ ملك قشتالة ألفونسو[1] يتأهّب لمحاربة المسلمين بكل ماله من قوى ، بعد أن ركن الى السكينة منذ وفاة يعقوب المنصور ، فلم يكن القشتاليون المتعطّشون الى الحرب ليستطيعوا البقاء دون قتـال .

حصّن ألفونسو قلعة « مورا » الواقعة على الحدود مـع الأندلس الاسلامية تحصيناً قوياً سنة ١٢٠٩ م ، ثم سار في جيش من القشتاليين وفرسان قلعة رباح الى الأندلس ، فأحرق زروع الحقول ، ونهب القرى ، وقتل السكان وسبى منهم جموعاً كبيرة. ثم عاد الى قشتالة ودعا ملكي نافار وأراغون ووثّق معهما عهود الصلح ، وحصل منهما على وعد بتأييده وامداده بالجنـد حين

---

(١) وهو الفونش الثـامن « النبيل » : Alfonso VIII elNoble « ٥٥٣-٦١١ هـ ـ ١١٥٨-١٢١٤ م » ورث الحكم طفلا بعد وفاة والده شانجه الثالث.

الخطر لمحاربة المسلمين واعتزم بعد ذلك مَحْوَ وصمة هزيمة الأرك ، باحراز نصر على الموحِّدين[1] .

وفي عام ١٢١٠ م سار ألفونسو ثانية الى الأندلس ، وخرب أراضي جيان وبياسة وأندوجار ، ووصل الى بساتين مرسية ، وعاد الى عاصمة ملكه طليطلة مثقلا بالغنائم .

أمام هذه الاعتداءات المتكرّرة على الأندلس ، أعلن محمد الناصر « أبو عبد الله » الجهاد ، فحشد قوات كبيرة أرسلها من المغرب ، وقسّمها الى خمسة جيوش :

١ ــ الجيش الأول من قبائل البربر .

٢ ــ والثاني من الجنود المغاربة .

٣ ــ والثالث من الجنود الموحِّدية النظامية .

٤ ــ والرابع من المتطوّعة من جميع أنحاء المملكة .

٥ ــ والخامس هو جند الأندلس .

وَقُدِّر جيش أبي عبد الله محمد الناصر بنصف مليون مجاهد . وفي ٢٥ ذي القعدة سنة ٦٠٧ هـ / أوائل أيار « مايو » سنة ١٢١١ م ، جاز سلطان الموحِّدين بنفسه الى الأندلس ، ونزل في جزيرة طريف ، ثم سار بعد أيام الى إشبيلية .

وهنا كان الخطأ الفادح !!

---

(١) مازال المرجع الرئيسي لهذا الجزء كتاب (تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين) ليوسف اشباخ ، كما هو الحال في الجزئين السابقين : « الزلاقة والارك » ، راجع المرجع المذكور صفحة : ١٠٠ ومابعدها .

الخطأ الفادح

✱ وقع الخطأ الفادح بسبب خبث طوية الوزير أبي سعيد بن جامع ، الذي أصر على ألا يتقدم جيش الموحدين قبل الاستيلاء على حصن سلبطرة .

ارتكب أبو عبد الله محمد الناصر خطأ فادحاً ، إذ أرسل خيرة جنده الى حصن سَلْبَطَرَّة(١): Salvatierra ، فأنهك بذلك قواهم ، ولبث الجيش أمام هذا الحصن ثمانية أشهر وهو ممتنع عليه ، **وأصر أبو عبد الله محمد الناصر نزولاً على نصح حاجبه أبي سعيد ابن جامع ـ وكان الموحدون يشكون في صدق نياته ـ ولكن أبا عبد الله محمد الناصر وضع فيه كل ثقته ، وأصر أبو سعيد بن جامع على ألاّ يتقدم جيش الموحدين قبل الاستيلاء على حصن سلبطرة .**

وهكذا استمر الحصار طوال الصيف حتى دخل الشتاء ، وعانى المغاربة في الجبال الوعرة المحيطة بالحصن من قسوة الطقس.

---

(١) حصن سلبطرة ، حصن جبلي منيع ، ذكره ابن خلدون باسم « شربطرة » : العبر ، جـ : ٦ ، ص : ٢٤٩ . وذكره المراكشي في « المعجب في تلخيص أخبار المغرب : دولة الموحدين » قلعة شلبترة . ويرى الدكتور حسين مؤنس انها تقع في مديرية Albacete الحالية . ومعنى اسم القلعة ـ اي سلبطرة ـ الأرض البيضاء في اللغة المعروفة بالمنطقة آنذاك .

ـ وذكر د. الحجي أن سلبطرة جنوب قلعة رباح .

مالا يُطاق . كما أودى المرض بحياة آلاف منهم ، وأخذت وسائل التموين لهذا الجيش الضخم تصعب وتتعثّر يوماً فيوماً .

وأرسل ألفونسو ملك قشتالة ولده فرديناند على رأس جيش نفد الى ولاية « استراما دوره » ، محاولاً أن يرغم الموحّدين على رفع الحصار ، ولكن هذه المحاولة لم تفلح ، وفجع ألفونسو بفقد ولده ، الذي أودت بصحته ومن ثم بحياته مشاق الحرب ، وسقطت قلعة سلبطرة أخيراً بيد الموحدين ، بسبب الجوع الذي حل بها بعد انتهاء مخزونها من التموين ، ولكن مقاومة القلعة الطويلة ، وصمودها الكبير لمدة ثمانية أشهر كان سببا في انقاذ اسبانية النصرانية[1] .

وراع سقوط سلبطرة ألفونسو خاصة ، وجموع النصارى في اسبانيا وأوربة عامة ، وخامر الرعب ألفونسو فخرج الى قاصية اسبانية مستنفراً مَنْ أجابه من الأمراء[2] والفرسان وذوي النجدة منهم ، فاجتمعت له جموع عظيمة من اسبانية نفسها ومن أوربة ، حتى بلغ النفير الى القسطنطينية .

كما أرسل ألفونسو الأسقف « جرهارد » الى البابا أنوسان الثالث ليرجوه أن يرسل الصيحة الى أمم أوربة النصرانية ، لكي

---

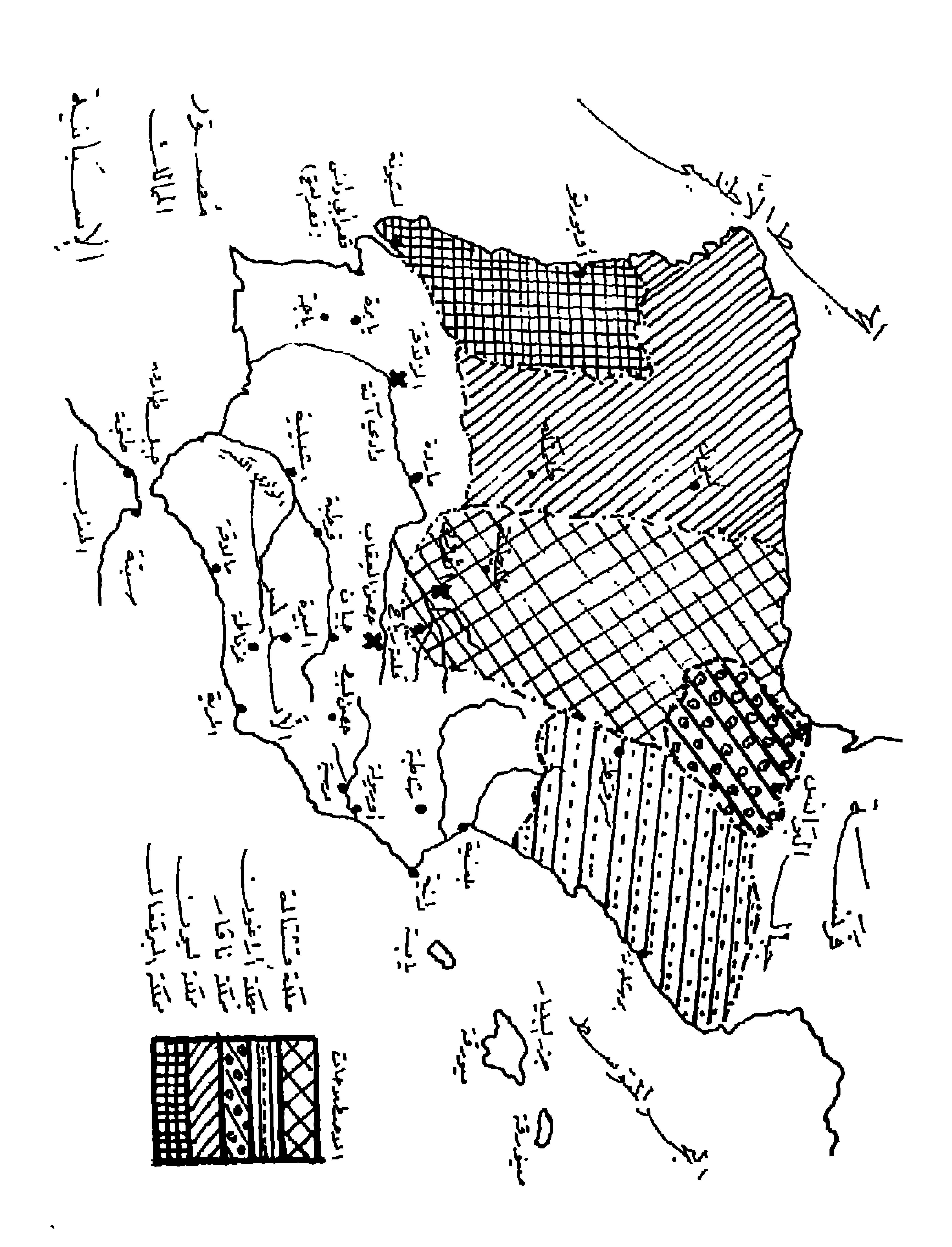
(١) مما يذكر ان يعقوب المنصور كان قد نزل على حصن سلبطرة قبل ذلك ، وحاصره أياما يسيرة ثم تركه شفقة على المسلمين وخوفا عليهم .

(٢) راجع المصور ص ٢٧ للتعرف على الامارات الاربع التي كانت في اسبانية ، وهي : قشتالة ، واراغون ، وليون ، والبرتغال ، والتي كانت لها حدود مع الاندلس ، والامارة الخامسة (نافار) قرب جبل البرانس .

تنظّم حملة صليبية ضد المسلمين في الأندلس ، وأرسل رودريك الطليطلي وعدة أخر من الأحبار الى فرنسة ، والى الأمم الواقعة على حدودها الشرقيـــة « ليثيروا بذلاقتهم حماسة الشــعوب النصرانية من البرينيه الى البحر الأسود ، لكي تساهم في كفاح الصليب المقدس »[1] .



(١) « تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين » ، ج : ٢ ، ص : ١٠٨ .



الحشد الصليبي

قبيل العقاب

★ بعث البابا أنوسان الثالث الى الاساقفة في جنوبي فرنسة : « بان يعظوا رعاياهم بان يسيروا بأنفسهم واموالهم لمؤازرة ملك قشتالة ، وأنه ـ اي البابا ـ يمنح كل من لبى الدعوة الغفران التام » •

في هذه الأثناء التي كان فيها البابا أنوسان الثالث[1]، ومطران طليطلة جرهارد يعملان للحصول على معاونة أوربة النصرانية ضد المسلمين ، كان ألفونسو يعمل لجمع كلمة الملوك الإسبان ضد الموحّدين ، ودعا الى مؤتمر عقد في « قونقة » شهده بيدروالثاني ملك أراغون ، ومندوبون من قبل باقي ملوك النصارى ، ووعدوا بتقديم العون من جند ومال ، وهكذا انقضى عام ١٢١١ م في القيام بأهبات عظيمة لمتابعة الحرب • وقبل انتهاء الشتاء ، اجتمعت في طليطلة عاصمة قشتالة والتي اتخذت مكاناً لاجتماع الجند قوات عظيمة • فلقد عاد المطران « ردريك » ـ الذي كان نصيبه استغاثة

---

(١) أنوسان أو أنوصان الثالث : Inocenio III, Innocent وصف بانه يتمتع بروح صليبية عالية •

فرنسة ـ ومعه جمع غفير من الفرنسيين ، وتلا ذلك ان اجتمعت وفود من المدن الاسبانية المتعددة ، وفرسان الولايات القشتالية المختلفة، وفرسان قلعة رباح، وشنت ياقب، والاسبتاريةوالداوية، ورؤساؤهم وإخوانهم المحاربون ، واجتمع الفرسان القشتاليون في أكمل هيئة وسلاح ، إظهاراً لمكانتهم ، وإرهاباً لعدوهم[1] .

ومما يذكر .. أن الأساقفة كانوا يرئسون صفوف المحاربين من المدن المختلفة ، وقد تولوا الانفاق على حشودهم[2] .

ومع أنه وفدت على اسبانية جموع المحاربين من جميع البلدان الأوربية ليقاتلوا دفاعاً عن النصرانية متقلدين الصلبان ، فقد كان الفرنسيون أكثر الوافدين عدا . وقدم « ميوم » أسقف مدينة بوردو « بـِرْدال » ، وأسقف « نانت » وغيرهما من الأحبار الفرنسيين في جماعة متحمّسة من الفرسان ، وجيش كبير من المشاة من ولايات جويان ، وليموج ، وسانتونج ، وبرى ، وبواتو ، وانجو ، وبريتانيا . وقاد أرنولد مطران أريونة جيشاً من لانجدوك وبروفانس وبرجونية يضطرم شوقاً للقاء المسلمين . ووفّق أرنولد الى ما هو أهم من ذلك ، وهو أن يحمل بذلاقته وضراعته ملك ناڤار ـ بعد أن كان غاضباً من ملك قشتالة ـ أولا على أن يؤيد

---

(١) « تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين » ، ج : ٢ ، ص : ١٠٩ .

(٢) في الروض المعطار للحميري : « الأذفونش بن شانجة لم يقدر في ذلك الوقت على شيء حتى استغاث بأهل ملته ، وكاتب من قرب وبعد منهم ، وشكا اليهم ما دهاه من المسلمين ، وحثهم على حماية دينهم ونصر ملتهم ، فاستجابوا له وجاؤوه من كل جهة وانثالوا عليه » حتى أن ملك نباره شانجو السابع الذي قد ارتبط مع الموحدين في حلف وصداقة ، هدده البابا اذا لم ينقضه ويعاون ملك قشتالة ، ففعل .

قضية اسبانية بالمال والجند ، ثم ـ وهو الأهم ـ على التعهّد بأن يسير في فرسانه ، وأن يشترك بنفسه في القتال .

واجتمعت في قشتالة جموع المحاربين الذين هرعوا من جميع أنحاء أوربة لمعونة اسبانية ، وفي طليعتهم ألفان من البارونات مع حاشياتهم ، وبيدرو الثاني ملك أراغون في جيشه الضخم ، كما وصلت امدادات ليون وجليقية والبرتغال ، وكانت القوات البرتغالية تتألّف من عدد كبير من الفرسان والمشاة البارعين ، يقودهم أمير برتغالي هو بيدرو الثالث ، أحد ابناء الملك سانشو الأول ، وكانت القوات الليونية بقيادة سانشو فرنانديز « أخي ملك ليون » . ولم يحضر ملك ليون بنفسه ، إذ قامت بينه وبين ملك قشتالة خصومة جديدة من أجل بعض الأماكن على الحدود ، أما ملك ناڤار فلم يكن استكمل أهبته بعد ، غير أن قدومه كان منتظراً .

* * *

ضاقت طليطلة بهذه الجموع ، فاضطرت الألوف الكثيرة أن تقيم في الخيام خارج المدينة ، بمزيج من الأزياء والسلاح والعادات واللغات .

واستطاع ملك قشتالة تأمين المؤن الكافية لهذه الجموع ، فقدم الخيام والأطعمة والخيل ، وقطفت هذه الجموع كل ثمار

بساتين طليطلة ، واتلفت زروعهـا ، وقطفت كرومهـا وأشجارها لحرقها لاستعمالها في انضاج الطعام •

أهمية الموقف دلت عليه الحشود الصليبية الأوربية ضـد مسلمي الأندلس ، واشتراك أوربة اشتراكا فعليا بأمر من البابا حيث أرسلت فرنسة وايطالية مقادير عظيمة من المال والسـلاح والمؤن ، كل ذلك مكن ألفونسو من أن يمـد جيش الوافدين الذي بلغ في أوائل حزيران سنة ١٢١٢ م ، أكثر من عشرة آلاف فارس ، ومائة ألف من المشاة ، فضلاً عن المؤن برواتب ماليـة مغرية ، بالاضافة الى الهدايا النفيسة الى القادة والزعماء •

وفي رومة ، أمر البابا أنوسان الثالث بالصوم ثلاثة أيام ، والاكتفاء بالخبز والماء ، التماساً لانتصار الجيوش النصرانية ، وأقيمت الصلوات العامة ، وعمد الأكليروس والرهبان والراهبات الى ارتداء السواد والسير حفاة ، وسارت المواكب في الطرقات خاشعة متمهلة من كنيسة الى أخرى ، ومن دير الى آخر ، وألقى البابا أنوسان الثالث موعظة صليبية ، طلب فيها الى النصارى أن يضرعوا الى الله التماسا لنصر الاسبانيين •

ولما غـصـّت طليطلة وبساتينها بجموع المحاربين ، واستراحوا من وعثاء السفر ، تأهـّب الجيش النصراني للسير الى لقاء المسلمين في ٢٠ حزيران « يونية » ١٢١٢ م ، ونـُظـّمت القوات في ثلاثـة جيوش ، حتى لا يصاب الجند أثناء السير بنقص في المؤن ، وسار في الطليعة جيش الوافدين وقـدّر ما بين ستين ومائة ألف محارب،

تحت إمرة القائد القشتالي « ديجو لويبزدي هارو » ، ويقـود وحداته المختلفة مطران أربونـة ، ومطران بوردو « بنْرْدال » وأسقف نانت •

وكان يقود الجيش الثاني الملك بيدور الثاني ، وهو مؤلف من الأراغونيين والقطلونيين فقط ، مع فرسان الداوية •

أما الجيش الثالث ، وهو أضخم الجيوش الثلاثة ، ويتألف من جنود قشتالة ، ويقود وحداته كبير أساتذة جمعيات الفرسان ، الأمير الليوني سانشو فرنانديز ، والأمير البرتغالي بيدرو، وردريك مطران طليطلة ، وخمسة أساقفة أخر • وتقـدِّر الرواية عـدد الفرسان في هذا الجيش بثلاثين ألفا ، ولكنها لم تحدثنا عن عدد المشاة لحشدهم الضخم الكبير •

وفي اليوم الخامس من بـدء السير من طليطلة ، في الرابع والعشرين من حزيران « يونية » ١٢١٢ م ، هـاجم المحاربون الوافدون حصن « مجلون » ، وأبادوا جميع من فيه • ولكن المؤن أخذت في النقص ، وأخذت حرارة الجو ترهقهم ، فبـدا وكأن حماستهم خبت على أثر هذا المجهود • وفكر كثير منهم في العودة الى الوطن • وكان ملك قشتالة أول مـن قَدِمَ الى « مجلون » في اليوم التالي لسقوطه ، فهدأ روعهم بتوزيع المؤن الوفيرة عليهم ، واستطاع أن يقنعهم بالسير معه الى قلعة رباح ، وكانت بها حامية قوية من الموحدين ، ولقي النصارى في عبـور وادي يانه الذي تقع عليه المدينة صعاباً فادحة ، إذ كان المسلمون قد نثروا على جانبي الوادي الصنانير والخوازيق الحديدية •

وهاجمت الجيوش الثلاثة قلعة رباح من جوانبها الثلاثة المنيعة ، حتى سقطت المدينة في أيديهم ، ولكن القلعة كانت مجهزة بالأبراج العالية ، والأسوار المنيعة ، وكان يُخشى أن تقتضي حصاراً طويلاً . وأبدى ملك أراغون والمحاربون الوافدون في اقتحام المدينة شجاعة عظيمة ، ولكنهم تكبدوا أفدح الخسائر .

ويقول يوسف اشباخ[1] : « وقبل أن يعود النصارى الى مهاجمة القلعة ، عُقد مجلس حربي للبحث فيما إذا لم يكن من الأفضل أن يقتصر على تطويق القلعة ، دون محاولة افتتاحها ، وأن يُبْدأ بالسير تواً لمهاجمة المسلمين . وكان يرابط على مسيرة بضعة أيام في نهاية مقاطعة « مَنْشا » بين جيان وقرطبة ، ولكن غلب الرأي بوجوب مهاجمة القلعة ، إذ كان من المعروف أنها تحوي أموالاً هائلة ، وكميات عظيمة من المؤن التي بدأ النصارى يشعرون بنقصها .

وما كاد المسلمون يقفون على نيّة عدوهم ، حتى بعث قائد الموحدين أبو الحجاج يوسف بن قادس سراً وتحت جنح الليل ، رسولا الى ملك قشتالة يعده بتحف عظيمة وتسليم القلعة ، إذا سمح للحامية أن تنسحب بسلاحها .

وكان ملك قشتالة يميل الى إجابة هذا الطلب لكي يستولي على القلعة بسرعة ، ولكن الأراغونيين والمحاربين الوافدين أبوا الاصغاء الى أية تسوية تحقن بها دماء الحامية ، بيد أنه لما

(١) « تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين » ج : ٢ ، ص : ١١٣ .

أبدى المسلمون عزمهم على المقاومة بأقصى مايستطاع ، وافق النصارى أخيراً على أن تنسحب الحامية دون سلاحها » •

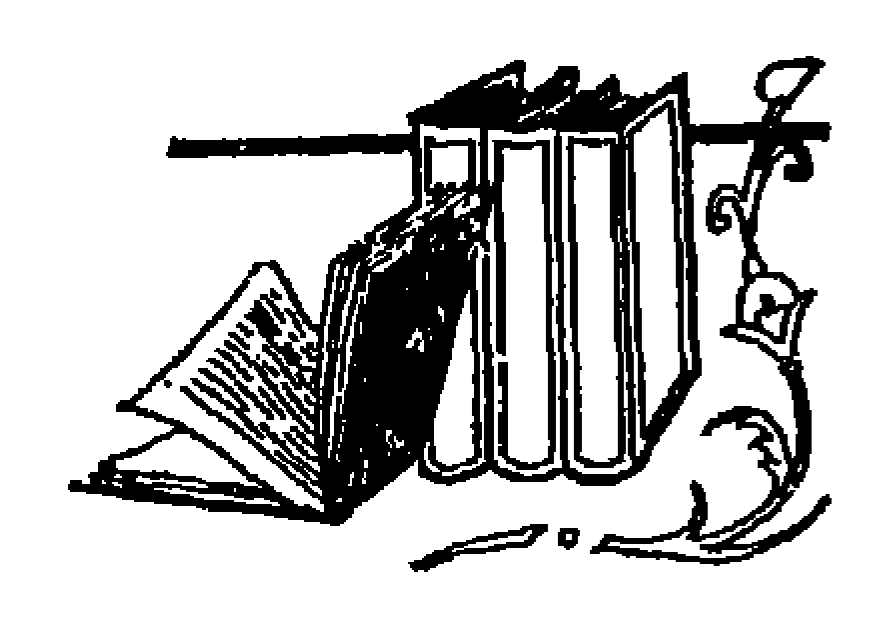
ووجد ألفونسو في قلعــة رباح كميات عظيمة من المؤن ، وسلـّمت قلعــة رباح نفسها الى جمعيــة الفرسان التي تسمـّت باسمها •

وألقى الاستيلاء على قلعة رباح بذور الشقاق في الجيش النصراني ، ذلك أن المحاربين الوافدين أسخطهم أن تنجو الحامية من بطشهم وهم المتعطشون الى الدماء والقتل والنهب ، وحقدوا على ألفونسو لأنه فيما اعتقدوا حرمهم من الغنائم المنشودة ، وأبوا ــ بحجـّة عدم احتمالهم لجو اسبانية الحار ــ أن يتابعوا الحرب من أجل المملكة الاسبانية قائلين : إنهم وفـّوا بعهدهم في مقــاتلة المسلمين بما خاضوا من معارك أمام أسوار « مجلون » وقلعة رباح • وأيدهم مطران بوردو « بـُر°دال » أعظم أحبــارهم في غضبتهم وفي قرارهم ، وتمسكوا برأيهم بالرغم من كل رجاء واقناع ووعود ، وفي الحال بدأوا السير عائدين الى أوطانهم • ولم يـَرَ الاسبان باعثاً لهذا الرحيل الفجائي لأولئك المحاربين المتحمـّسين من أجل الصليب سوى الحنين القاهر الى الوطن ، أو وسوســة الشيطان ، وقد وقع افتراقهم عن الجيش الاسباني على مقربة من جيش المسلمين الذي كانت تعد العدة لمهاجمته ، وأغضوا عــن قضيتهم الدينية ، وعن شرفهم ارضاء لشهوتهم في الانتقام من ملك قشتالة « الذي بالغ في الاساءة إليهم » فيما قالوا • وغادر زهاء خمسين ألف مقــاتل الجيش الاسباني صــوب جــبال البرينيه

« البرانس » غاضبين حاقدين • وخشي الاسبان عواقب اعتدائهم ونهبهم ، فأغلقوا في وجههم جميع المدن •

ومع أن رحيل هذا العدد الجم في تلك الآونة كان شـــديد الوقع على النصارى الاسبان ، فانهم لم يفقدوا مع ذلك شجاعتهم، بل ساروا الى لقـــاء المسلمين بعـــزم أقوى ، وأذكى شجاعتهم استيلاؤهم على حصن الأرك ، وهو المكان الذي لقي فيه ملك قشتالة قبل ذلك بسبعة عشر عاماً هزيمته الشنعاء ، وأذكى شجاعتهم أيضاً قدوم سانشو ملك ناڤار ، فسدّ الفراغ الذي أحدثه الراحلون بفرسانه وهم أشد براعة وفناً في حربهم من الراحلين •

وعلى أثر ذلك سار الملوك الثلاثـة(١) المتحالفون الى مدينـة سلبطرة ، وهي القلعة التي افتتحها الموحدون في العام السابق بعد حصار طويل • وعرض الملوك هنا جيشاً لم تخرج اسبانية النصرانية مثله من قبل ، بيد أنهم لم يقفوا بسلبطرة لمناعتها واتقاء لحصـــار لا طائل منه ، فاخترقوا ممر « مورادال » في جبال سيارا مورنيا « جبل الشارات » ، لكي يلقوا المسلمين في ناحيتها الأخرى •



(١) الملوك الثلاثة هم : ١ ـ الفونسو الثامن ملك قشتالة •
٢ ـ سانشو ملك نافار ، او شانجُه السابع •
٣ ـ بيدرو الثاني ملك ارغون ، او بطره : Pedro •

الخطأ الثاني

مِنْ حَاشِيَةِ السُّوءِ

✶ مَقْتَلُ البطل يوسف بن قادس « أبو الحجّاج » ، بايعاز الوزير الخبيث أبي سعيد بن جامع !!

سعى محمد الناصر مع ما معه من جموع للقاء الجيش الأوربي الصليبي ، مؤمّلاً أن ينزل به هزيمة كالتي أنزلها أبوه بألفونسو في موقعة الأرك . وكان يحز في نفسه فَقْدُ قلعة رباح ، وبالرغم من أن حاكمها أبا الحجاج يوسف بن قادس بذل كل ما يستطاع للدفاع عنها ، فإن أبا عبد الله محمد الناصر اعتقد فيما يظهر أنه قصَّر في هذا الواجب . ولذا ما كاد ابن قادس يصل مع الناجين من جنود الحامية الى المعسكر ، حتى أمر أبو عبد الله محمد الناصر بقتله جهاراً نزولاً على نصح وزيره أبي سعيد بن جامع ، الذي كان رجلاً كثير الدس ، يبغض كل الزعماء الموحدين و الأندلسيين .
وكان لمقتل أبي الحجاج يوسف بن قادس أثر سيء في الجيش الاسلامي كله . ولا سيما في جند الأندلس ، ذلك لانهم كانوا يعلمون أن ابن قادس قد بذل كل المستطاع ، وأن مقتله لم يقع إلا بتحريض الوزير الذميم .

وعلى إثر سقوط قلعة رباح ، غادر أبو عبد الله محمد الناصر مع جيشه الرئيسي مدينة جيان ، وسار الى ضفة نهر الوادي الكبير

اليمنى نحو بياسة ، واحتلت سريّات من خير جنده ممرات جبل الشارات « سيارامورنيا » المؤدّية الى أبده وبياسة • ومع ذلك فقد استطاع النصارى بعد أن نفذوا الى ممر مورادال أن ينتزعوا بعد معركة عنيفة قلعة « فِرّال » الواقعة في قمة الجبل ، ولكن النصارى لم يغنموا بأخذها كثيراً ، ذلك لأنه لم يكن في استطاعتهم نظراً لانعدام الحياة في تلك المفاوز الشاقّة ، أن يطيلوا المكث بها دون التعرّض لأعظم الأخطار ، هذا •• الى جانب أنهم لم يروا سبيلاً للاستيلاء على الممرات الجبلية التي شُحِنَت بالرجال ، ورُتّب الدفاع عنها أعظم ترتيب •

وكان المسلمون عندما رأوا تعذّر الدفاع عن الآكام المرتفعة، قد احتلوا بخيرة جندهم الممر الذي يفضي من أعلى الجبل الى سهل « تولوزا » ، وقد أكد ألفونسو ملك قشتالة في رسائله الى البابا أنوسان الثالث أنه يستحيل على قوى العالم كلها أن تخترق هذا الممر إذا تولى الدفاع عنه ألف مقاتل فقط •

ففي ذلك المأزق الخطر ، كان يتعذّر بأية خطوة أخرى ، وكان يبدو أن خير ما يمكن عمله ، أو بالحري •• أن المخرج الوحيد الممكن لاتقاء الهلاك من الجوع والعطش في ذلك الجبل الوعر هو الارتداد ، ومحاولة دخول الأندلس من طريق آخر •

وبينما كان ملك قشتالة يصر على رفض أيّة حركة ارتداد ، لأنه كان يأبى أن ينسب النصر الى المسلمين ، في حين أنه لم يشتبك معهم بعد • إذ تقدم راعٍ من رعاة هذا المكان ، ووعد بإرشاد

الجيش النصراني الى طريق يقع في مرتفع آخر ، ويمكن سلوكه دون أن يفطن المسلمون إليهم ، وينحدر الجيش النصراني منه الى سهل « ابده » دون أن يتمكن المسلمون من إعاقته[1] .

ولما تحقق الملوك الثلاثة بإرسال القائد المجرّب « ديجو لويزدي هارو » لمعاينة الطريق ، من صحة رواية الراعي ، أمروا في نفس اليوم السبت ١٤ تموز « يولية » ١٢١٢ م ، برحيل الجيش ، وسار النصارى بإرشاد الراعي الذي اعتبر عندئذ بحق منقذاً دون شك من هلاك محقّق . فاحتلوا المرتفع المذكور ، وكان سهلا بسيطاً شاسعاً ، يصلح لنزول الجيش . وبقي الملوك النصارى في مكانهم مع القوات الاحتياطية ، إخفاء لحركة الجيش عن المسلمين، ثم غادروا في النهاية قلعة « فِرّال » ، فاحتلها المسلمون على الأثر، معتقدين أن النصارى قد ركنوا الى الفرار ، وهذا يدل على ضعف الاستطلاع في جيش أبي عبد الله محمد الناصر في هذه الآونة .

ولكن .. سرعان ما وقف المسلمون على مكان عدوّهم الجديد ، وبالرغم من المزايا التي حصل عليها النصارى باحتلال مكانهم الجديد ، فإن سلطان الموحّدين كان واثقاً من تفوّق قواته، فدعا الى القتال في نفس اليوم ، ولكن الملوك الاسبان لم يقبلوا هذه الدعوة ، إذ كان جيشهم منهوك القوى من أثر السير الى مكانه الجديد ، ولم يكن قد تمّ تحصين المعسكر ، وفكروا بالغدر والاحتيال على عادتهم !

(١) « تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين » ، ج : ٢ ، ص : ١١٦ .

المعركة

موقعة حصن العقاب

«ناڤاس دي تولوزا»

✶ ١٥ صفر ٦٠٩ هـ ١٦ تموز «يولية» ١٢١٢ م : - أول وهن حقيقي دخل على الموحدين ، وكان بدء هلاك الاندلس .

نظم أبو عبد الله محمد الناصر جيشه لخوض المعركة ، وآثر الملوك الاسبان الاعتصام بموقعهم المنيع ، ولم يسمحوا إلا لبعض فرسانهم بالالتحام مع المسلمين في مبارزات ثنائية . ولم يرد النصارى أن يكدّروا صفو يوم الأحد بأعمال الحرب ، بل أرجؤوها الى اليوم التالي الاثنين . ولم يكن من الميسور أن تؤجل المعركة بعد ، إذ بدأت المؤن في النقص ، واضطروا الى مراعاة أشد شروط الاقتصاد في الماء ، ووقف أبو عبد الله محمد الناصر على أحوال المعسكر النصراني من بعض النصارى ، فأخذ يفاخر بأنه لن تمضي ثلاثة أيام أخرى ، حتى يقع الملوك الثلاثة المحصورون في الرّبى وجيوشهم أسرى في يديه .

ورتّب الملوك الاسبان في صباح ١٦ تموز « يولية » جندهم

لخوض المعركة ، فرابط بعضهم على سفح الجبل ، والبعض فوق الربى ، تزعّم ألفونسو ملك قشتالة قلب الجيش مع احتفاظه بنوع من الاشراف على الجيش كله ، وكان القلب يضم أربعة فرق :

١ ــ تتألف الفرقة الأولى من سكان الجبال القشتالية ، ويقودها « ديجولويز » .

٢ ــ وتتألف الفرقة الثانية من فرسان قلعة رباح ، وشنت ياقب ، والاستبارية والداوية ، وبعض جند الحدود القشتالية ، ويقود هذه الفرقة الكونت « جونزالو نونيز دي لارا » .

٣ ــ والفرقة الثالثة وتتألف من جند وفرسان من قشتالة القديمة واشتوريش ، وبسكونية ، ويقودها الكونت « ردريك دياز كاميروس » .

٤ ــ وتتألف الفرقة الرابعة من الجند الاحتياطي من طليطلة، وبعض قوات ليون ، ويقودها ألفونسو نفسه ، فهو هنا يقلد تنظيمات المرابطين والموحدين . وكان يرافق القوات الاحتياطية فضلا عن المطران « ردريك الطليطلي »[1] ، عدة أساقفة من قشتالة وليون مع جندهم .

وكان يقود الجناح الأيمن سانشو ملك نافارا ، وفيه فرسان فرنسيون بقيادة أرنولد مطران أربونة ، وجند جليقية والبرتغال، وعلى رأسهم الأمير البرتغالي .

---

(١) وهو الذي ارخ الرواية الكنسية الاوربية لهذه المعركة . راجع اشباخ ، ج : ٢ ، ص : ١١٧ .

أما الجناح الأيسر ، فكان ينقسم أيضـا الى أربع فرق ، ويتألف كله من قوات أراغون ، ما عدا بعض جندالمشاة القشتاليين، ويقوده الملك بيدرو ، ومن حوله الأحبار والأرغونيون .

* * *

أما جيش الموحّدين ، فقد قسّمه أبو عبد الله محمد الناصر تجـاه جيش النصارى في سهل « تولوزا » ، وفق الأوضـاع الموحّديّة الى خمس فرق .

كانت الفرقة الأمامية تتألف من المتطوّعة ، وهم الـذين يتطوّعون من تلقاء أنفسهم ، وبدافع ذاتي محض للجهاد والموت في سبيل الله ، ونشر الإسلام . وتقدرهم الرواية العربية بمائـة وستين ألف مقاتل . واصطفت القوات الأندلسية في الميمنـة ، والقبائل البربرية في الميسرة . وأما القلب والقـوات الاحتياطية فكانت تتألف من صفوة الجيش ، من الجند المغاربة والنظاميين ، أو بعبارة أخرى من الجند الموحّدين .

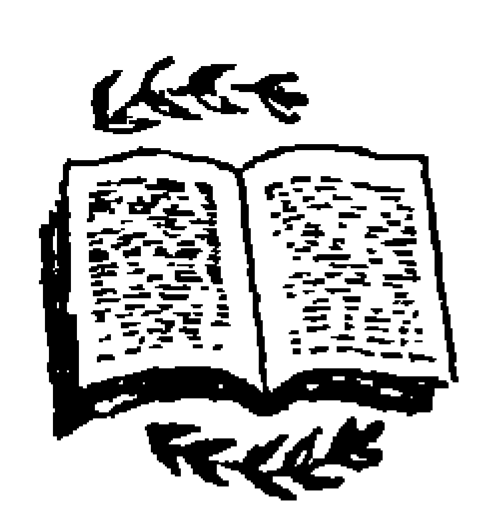
وضرب أبو عبد الله محمد الناصر قبّته الضخمة الحمراء في وسط الصفوف ، ربط أمامها جواده المسرج . وقعد في داخلهـا على درقته[1] ، ايذاناً باقتراب المعركة ، ومن حوله حرسه مـن مشاة وفرسان . وشهر الجند حرابهم في اتجاه معسكر النصارى

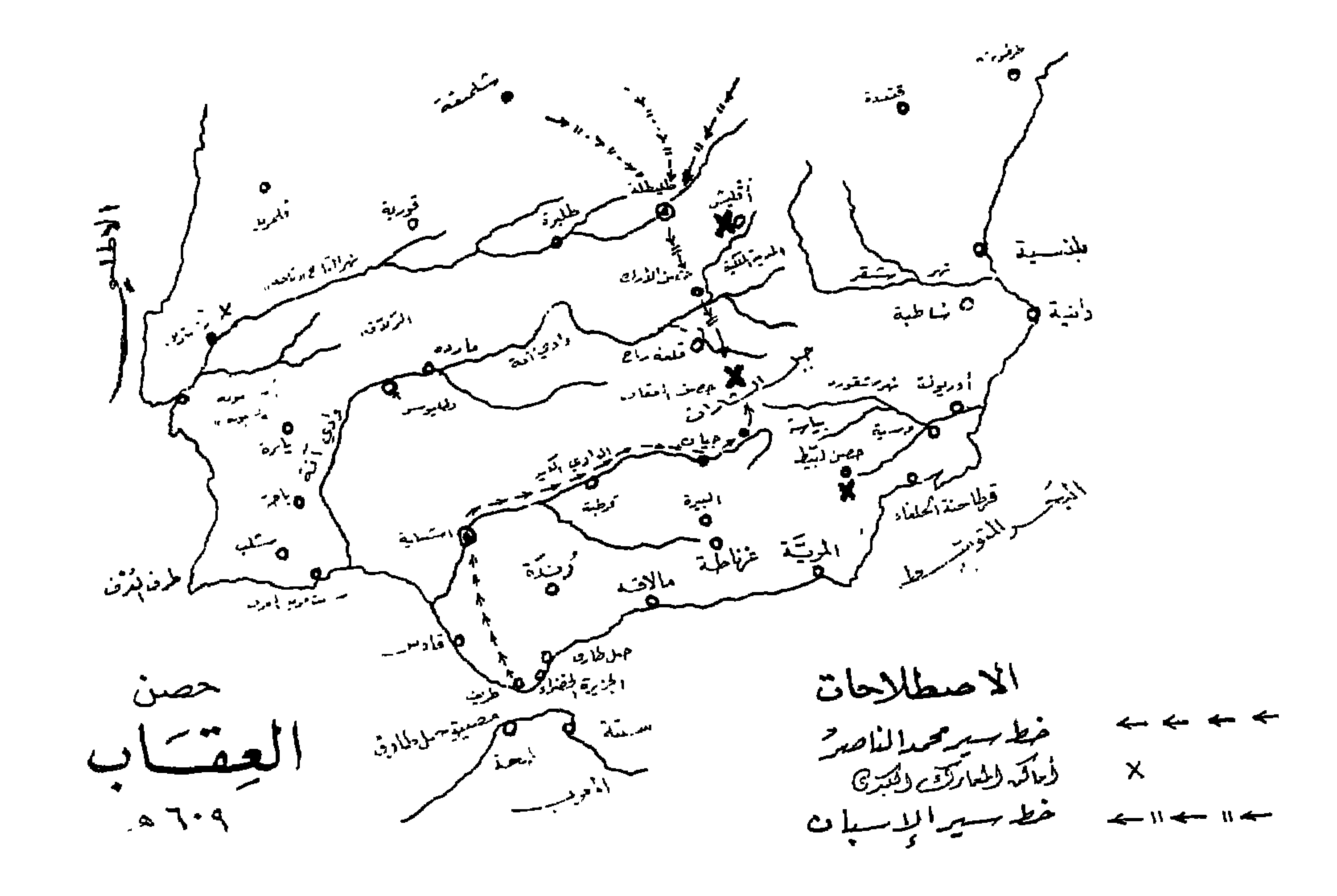
(١) الدرق : الدرقة : الحجفة والجمع درق . والحجفة هي الترس اذا كان من جلود ليس فيه خشب .

الاسبان ومن معهم من قوات أوربية صليبية ، فكانت سداً منيعاً دون اختراقه الموت •

وكان بوسع جيش النصارى أن يروا من الربى العالية جموع المسلمين الكثيفة ، وقبّة سلطان الموحّدين الحمراء ، وأن يميّزوا ما حولها من الجموع •

ولما تمّت أهبات المعركة ، خرج سلطان الموحّدين من قبّته، وهو يرتدي عباءة حرب سوداء من مخلفات جده عبد المؤمن ، وقد رفع المصحف الشريف باحدى يديه ، وشهر سيفه بالأخرى ، بينما كان قرع الطبول الضخمة يدوّي بشدّة في جميع الأرجاء •




حصن
العقاب
٦٠٩ هـ
الاصطلاحات
خط سير محمد الناصر
أماكن المعارك الكبرى
خط سير الإسبان
طليطلة
أقليش
طلبيرة
قورية
بلنسية
شاطبة
دانية
قونكة
ماردة
بطليوس
قلعة رباح
حصن العقاب
البيرة
غرناطة
المرية
مالقة
قرطبة
رندة
اشبيلية
قادس
جبل طارق
الجزيرة الخضراء
طريف
سبتة
شلب
باجة
يابرة
أوريولة
مرسية
قرطاجنة الحلفاء
البحر المتوسط
وادي آنة
الوادي الكبير
شلمنقة

المعركة

ما كادت جموع المتطوّعة من المسلمين ، تلتقي بجنود الجبال القشتاليين ، وجموع الفرسان النصارى ، ويشتبك الفريقان في معركة حامية اللظى ، ويتحرك الجناحان في كل من الجيشين تجاه بعضهما ، حتى غدت المعركة عامة .

وكان هجوم المتطوّعة المسلمين شديداً عنيفاً في البداية ، ولكنهم لم يستطيعوا اختراق صفوف الفرسان القشتاليين ، ذلك أن هؤلاء كانت تؤيدهم جماعات من الفرسان الدينية ــ الاستبارية والداوية ــ فاستطاعوا أن يردّوا جموع المسلمين ، وأن يمزقوها . واستشهد ألوف من المسلمين في سبيل الله والإسلام ، ولكن القشتاليين حينما عمدوا الى مطاردة المتطوّعة المسلمين ، وتقدّموا بذلك ظافرين من قلب الجيش الاسلامي ، حيث حُشِدت صفوة الجند ، لقوا أشد مقاومة ، وسرعان ما اضطروا الى مغادرة مراكزهم الأمامية ، وارتدوا فارّين ، فتابعهم الفرسان المسلمون في ارتدادهم وفرارهم .

ولما رأى ملك قشتالة من الرّبى تطور المعركة على هذا النحو السيء ، أراد أن يسير بنفسه على رأس الجنود الليونيين والطليطليين ، وهم جماعة مختارة كانت تؤلّف القوة الاحتياطية ، وأن يقتحم الميدان ليحاول محاولة اليأس الأخيرة ،

وكانت كلماته التي قالها لمطران طليطلة وهي : « **إن الساعة قد حانت لنلقى الموت المجيد**(١) » ، تدل على أنه لم يكن يأمل النصر بعد . ولكن اعتراضات المطران ردت آلفونسو عن أن يخوض بنفسه أعظم الأخطار ، وأرسلت في الوقت ذاته قوات من أشجع الجنود لإمداد الجيش المرتد . وسار الأحبار أنفسهم على رأس الجند الى قلب المعمعة ، وهم يرفعون أعلاماً عليها صورة المسيح ، يثيرون بذلك أعظم الحماسة الصليبية في نفوس جندهم .

وانتهزت جماعات الفرسان والجند الجبليين فرصة تقدم الامدادات الجديدة ، ليلمّوا شعثهم ، وينظّموا جموعهم ، ثم عادوا فاستأنفوا زحفهم بمؤازرة القوى الجديدة ، وهم يحطّمون كل مقاومة في اتجاه قلب الجيش الاسلامي ، حيث كان أبو عبد الله محمد الناصر وحرسه ، وفي الوقت الذي ضربوا فيه هجومهم على دائرة السلاسل الحديدية التي احتشدت من ورائها ألوف مؤلفة من الحرس شاهرين الحراب ، كان جناحا الجيش الاسلامي قد حُطّما ، ذلك أنه ما إن بدأت الموقعة حتى ركن الأندلسيون الذين كانوا يقاتلون مرغمين مع الموحّدين الى الفرار ، وترتّب على ذلك أن وقع اضطراب عظيم في الجيش الاسلامي ، ولم يصمد في القتال سوى جند الموحّدين النظاميين ، والحرس المغاربة ، فقد لبثوا ثابتين يقاومون النصارى ، ويحاولون انتزاع النصر منهم ، وصدّوا النصارى من كل صوب بشجاعة وجَلَد لا مثيل لهما . ولكن الدائرة حُطّمت فغدا نصر الإسبان تاماً حاسماً ، وكانت

(١) « تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين » ، ج : ٢ ، ص : ١١٨ .

الهزيمة فادحة ، ولبث أبو عبد الله محمد الناصر يذكي حماسة حرسه حتى آخر لحظة ، ولما رأى الهزيمة حلّت بجيشه ، ووقف على استشهاد ولده الأكبر الذي قتل في المعركة وهو يقاتل قتال الأبطال ، لم يرد أن يعيش بعده ، فقعد في خيمته على درقته ، والعدو الصليبي الظافر يدنو منه ، فأقبل إليه أعرابي ، ونبأه بفرار جنده ، فناشده ألاّ يقعد بعد ، فقال أبو عبد الله محمد الناصر : « **صدق الرحمن وكذب الشيطان** » ، ثم امتطى صهوة جواده أخيراً ، وغادر الميدان مسرعاً مع نفرٍ من أصدقائه وجنده المخلصين ، واتجه صوب بياسة ، ولكنه لم يقف بها ، بل سار منها توّاً الى اشبيلية .

ومن هنا كانت بداية النهاية ، بداية أفول شمس الاسلام في الأندلس ، حيث كانت النهاية ، أو نهاية البداية «مصرع غرناطة» .

جاء في الروض المعطار : العِقَاب« **أول وهن دخل على الموحدين** » .

وقال ابن عذارى في بيانه المغرب : العِقَاب « **كانت السبب في هلاك الأندلس** » .

* * *

وذكرت بعض المراجع أن أسباب انتصار ألفونسو الدعم الكبير من أهل مِلّته ، الذي تجاوز مائة ألف أوربي ، قدموا من القسطنطينية شرقاً وحتى سواحل الأطلسي غرباً ، يحملون طابع

الحروب الصليبية ، للقاء الجيش الاسلامي ، وهذا صحيح دون شك .

يضاف الى ما سبق ، اتباع ألفونسو كل وسيلة حتى الغدر والاحتيال ، وتلك أمورٌ ما عرفها المسلمون في فتوحاتهم أبداً ، أمور يأنفها خلق المسلم .

يقول صاحب الروض المعطار : « ومخادعة النصارى لباقي الأجناد ، باشتهار الصلح والعمل على ضده ، حتى خالطوهم على غفلة ، فأخذ المسلمون في فرار ماسمع بمثله » .

ويقول عبد الواحد التميمي المراكشي في « المُعجب في تلخيص أخبار المغرب » : « فعبّأ الأذفونش « ألفونسو » جيوشه ، ورتّب أصحابه ، ودَهم المسلمين وهم على غير أهبة ، فانهزموا وقتل من الموحّدين خلق كثير » .

إنّ هذا الغدر والاحتيال من جانب ألفونسو ، لن يكونا عذراً لأبي عبد الله محمد الناصر في فشله وانهزامه ، فلو ضمن عنصر « الاستطلاع » بشكل جيد ـ كما فعل يوسف بن تاشفين قبيل الزّلاقة ـ لما داهمه عدوّه ، ولما أخذه على حين غرة . فلا عذر لمحمد الناصر في ذلك .

ومما يذكر .. أنه استشهد في هذه الموقعة من العلماء المسلمين العاملين المجاهدين :

ـ أبو عمر أحمد بن هارون بن عات النفزي ، وهو من أهل شاطبة ، له تآليف عديدة ، ووصف بأنه أحد حفاظ الحديث ،

وبالدراية والرواية ، غلب عليه الورع والزهد ،.وتآليفه تدل على سعة حفظه وعلمه •

ـ والقاضي الفقيه أبو ابراهيم اسحاق بن يعمر المجابري ، من سكان فاس ، تولى قضاء سبتة ثم بلنسية •

ـ أبو الصبر أيوب بن عبد الله الفهري ، من أهل سبتة ، وكان معروفا بالزهد وسعة الرواية •

ـ أبو محمد تاشفين بن محمد المكتب ، من أهل فاس ، زاهد عابد ، معلّم للقرآن الكريم ، له حظ من قرض الشعر •

وغيرهم تغمدهم الله برحمته •



نتائج معركة العقاب

★ العقاب : اشنع الهزائم التي لحقت المسلمين بالاندلس ، ان لم تكن عديمة النظير في تاريخنا الاسلامي . لقد خسرنا فيها الكثير ، وما خسرناه بعدها كان أكبر .

تُعْرَف هذه المعركة الكبرى التي أحرز فيها الأوربيون هذا النصر الحاسم ، والتي كانت ضربة قاصمة لسيادة الافريقيين في الأندلس ، تُعرَف في الرواية الاسبانية بموقعة « ناڤاس دي تولوزا : Navas Di Toloza » ، أو موقعة « أبدة » .

وتُعْرَف في الرواية العربية الاسلامية باسم « موقعة العِقَاب » ، وفي روض القرطاس عُرِفت باسم « حصن العِقَاب »[1] ، وهي في ١٥ صفر سنة ٦٠٩ هـ / ١٦ تموز « يولية » سنة ١٢١٢ م . وأسباب الهزيمة :

١ً ـ الاعجاب بالكثرة ، وكأن غزوة حُنين تتكرر بعد

---

(١) العِقَاب : (بكسر العين) ، جمع عقبة ، وهي المرتقى الجبلي . وهي في كل المراجع بهذا الشكل ، الا في الاعلام للزركلي ، فهي « العُقاب » بضم العين ، ونحن نرى أن خطأ في التشكيل وقع هنا .

(راجع الاعلام ، جـ : ٨ ، ص : ١٧)

حوالي ستة قرون في هضاب الأندلس ، إن الثقة بآلاف الجند ، وبمقدرة القادة ، أفقد القائد وافقد الجند اعتادهم على الله سبحانه ، وهذا يفسر لنا عبارة أبي عبد الله محمد الناصر ، التي قالها قبيل انسحابه ، ألا وهي : « صدق الرحمن وكذب الشيطان » .

٢ً — جبن الأندلسيين وخيانتهم ، إذ ركنوا الى الفرار بعد معارك قصيرة ، ولهذا ما يبرره الى حد ما ، وان كان الفرار من الزحف من الكبائر ولا شيء يبرّره ، ولكننا نعني أن حاشية السوء ، أو بطانة الشر وخبث الطويّة المتمثّلة بالوزير أبي سعيد بن جامع عندما ركن إليه أبو عبد الله محمد الناصر وقدّم نصحه بقتل أبي الحجاج يوسف بن قادس أمير قلعة رباح جهاراً وبغير حق ، هذا العمل سبب استياءً في الجيش كله ، ولا سيما بين جند الأندلس — كما أسلفنا — وقلنا : ذلك لأنهم كانوا يعلمون أن ابن قادس قد بذل كل المستطاع ، وأن قتله لم يقع إلا بتحريض الوزير الذميم !!

كل هذا مهد للفرار ، بعد تفرّق الكلمة ، وتنافر القلوب ، والحقد على الوزير الخائن ابن جامع ، وبالتالي الغضب من أبي عبد الله محمد الناصر الذي أضحى أذناً[1] لوزيره المتآمر .

إن انفصال الأندلسيين عن الجيش الاسلامي من عوامل

(١) الأذن : الذي يسمع ويصدق كل ما يقال .

الهزيمة ، ولكنه كان بسبب موقف ابن جامع ، فجرّوا بفرارهم انسحاب باقي الجيش[1] .

٣ً ـ ضعف شخصيّة أبي عبد الله محمد الناصر ، أمام وزيره ابن جامع .

٤ً ـ ضعف الجيش الاسلامي بعد ملازمته لحصار سلبطرة مدة ثمانية أشهر ، وتعرّضه لأقسى عوامل الطبيعة ، ونقص التموين والمؤن ، وكل ذلك بسبب رأي ابن جامع .

٥ً ـ ضعف القيادة ، وسوء التنسيق ظهر بعدم ثبات البربر والعرب بعد فرار جند الأندلس .

٦ً ـ تماسك جيش النصارى ، واعتقاد رؤسائهم بأنهم جاؤوا لنصرة دينهم على دين آخر .

ولقد قتل النصارى كل أسْراهم المسلمين في مكان المعركة ذاته ، وفقد المسلمون ثلث قواتهم في هذه المعركة[2] ، وفتح ألفونسو بعض الحصون والمدن مثل : فرال ، تولوزا ، بياسة ، بلقس ، بانيوس ، وأبدة التي أعملوا السيف في رقاب أهلها ، وحطّموا كثيراً من مبانيها ، بينما كان الرهبان والقساوسة يرتّلون الصلوات فرحاً بنكاية المسلمين ، ولولا الأمراض التي

---

(١) راجع : تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ج : ٢ ، ص : ١٢٠.
ـ والمغرب عبر التاريخ ، ج : ١ ، ص : ٢٩٤ .

(٢) استولت جيوش الفونسو على غنائم كثيرة بعد المعركة ، منها « العلم الموحدي » .

فتكت بجيوش النصارى لتابعوا بطشهم بالمسلمين ، فاضطروا الى الرجوع الى طليطلة حاملين مئات الأسرى من النساء والصبية ، ولكن بعد ارتكابهم المجزرة الرهيبة :

لقد كانت المجزرة اللاانسانية في مدينة بياسة . يقول أشباخ في تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين[1] : « ولم يكن في بياسة سوى المرضى والضعاف ، والظاهر أنها كانت بمثابة المستشفى للجيش ، وكان هؤلاء التعساء قد احتشدوا في مسجد المدينة الكبير ينتظرون مصيرهم جزعين ، فشاءت قسوة النصارى أن يجهزوا عليهم جميعاً بالسيف ، ما عدا قلائل منهم أخذوا أسرى ، بل ذهب النصارى الذين أعشتهم نشوة الظفر في قسوتهم وبطشهم الى أسفل درك ، حينما هاجموا مدينة أُبْدَة التي اعتصم بأسوارها القويّة بعض فلول الجيش المنهزم وسكانها العُزّل ، وكان المسلمون يأملون نظراً لمناعة المدينة الطبيعية والحربية أن يردوا هجمات أعدائهم حتى يحل فصل الشتاء .

ونظّم النصارى في الواقع على المدينة هجوماً عاماً خسروا فيه كثيراً من القتلى ، ولم يسفر عن أيّ نجاح ، لولا أن استطاع الأرغونيون أن يتسلّقوا الأسوار في أضعف نقطة فيها ، وأن يحتلوها ، ولكن القلعة وباقي أطراف المدينة بقيت على ثباتها رغم جهود الاسبان ، وعندئذ رأى الملوك والقوامس ، أن خير الطّرق وأكثرها إنسانية هي أن يقبل النصارى ما عرضه المسلمون ، وكان

(١) « تاريخ الأندلس .. » ليوسف أشباخ ، ج : ٢ ، ص : ١٢٣ .

المسلمون حينما سقطت بعض أجزاء السور في يد الأرغونيين قد خشوا العاقبة ، وأرسلوا الى الملوك النصارى يعرضون عليهم فدية قدرها ألف ألف قطعة من الذهب « مليون دينار » ، على أن يتركوا المدينة حرة ، يسكنها المسلمون وفقاً لشريعتهم وشعائر دينهم ، وهكذا قبل العرض ، وعقد الملوك مع المدينة اتفاقات بهذا المعنى ، نظراً لما آنسوه من صعاب في افتتاحها .

ولكن الأحبار الظمئين الى دماء المسلمين ، أعلنوا بطلان هذا الاتفاق ، وطلبوا أن تسلَّم المدينة دون قيد أو شرط[1] ، فشاء ضعف الملوك أن ينقضوا العهد المقطوع ، منتحلين لذلك عذراً هو أن المسلمين بعد أن فتحوا أبواب المدينة للنصارى ، لم يؤدوا الضريبة المفروضة عليهم في الحال ، وسرعان ما أطلق النصارى العنان لقسوتهم في معاملة هؤلاء المنكودين ، فقتل من المسلمين في أبدة زهاء ستين ألفاً ، وسبي مثل هذا العدد ، وهدمت الدور بعد أن خلت المدينة من سكانها ، وعندئذ أبدى الأحبار رضاهم ، ورتلوا أناشيد الشكر ضارعين الى المولى أن يشملهم برحمته » .

وهذه القصة غنية عن التعليق ، ولكننا نقول : أين هذا من سماحة ورحمة وإنسانية الاسلام في فتوحاته ؟!؟!!

وقرب أشبيلية ردَّ أبو زكريا بن أبي حفص النصارى ، الذين ركنوا بعد أخذ أبدة الى اللهو والاغراق في الملذات ، وهما

(١) عارض مطران طليطلة ، ومطران اربونة الفونسو باسم البابا ، واصرا على عدم تنفيذ العهد ، وعلى استسلام المدينة دون قيد او شرط .

قرينا حسن الطالع والسَّعة ، حتى استنفذت المؤن بسرعة ، وشعروا بنقص شديد في الحاجات الضرورية ، ثم دبّت إليهم الأمراض ، وأهلكت منهم ألوفاً ، فاضطر الجيش أن يعود أدراجه الى قلعة رباح ، دون أن يتابع نصره بعد ، وهناك التقوا بالدوق « ليوبولد النمساوي الذي قدم للعون في كتيبة من الجند ، فشكروه على حسن اهتمامه ، ولما علم أن الحرب قد انتهت ، عاد من حيث أتى[1] » .

لم تكن موقعة العقاب سبباً في تحطيم قوى أبي عبد الله محمد الناصر بالأندلس فقط ، ولكنها أفضت فوق ذلك الى تحطيم سلطان الموحدين في المغرب أيضاً ، فقامت دويلات في المغرب ولكنها لم تضارع الموحدين قوة وهيبة وسعة ملك .

وفي الأندلس .. بدأ عهد ملوك الطوائف الثاني بعد عهد الموحِّدين .

* * *

مَابَعدَالعِقَابْ

لم يوفَّق النصارى الى استغلال الظفر في موقعة العِقَاب ، بما كان يمْلي الذكاء ، وضعف الموحِّدين والأندلسيين . وهذا

(١) « تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين » ، ج : ٢ ، ص : ١٢٤ .

يذكرنا بعـدم استغلال المرابطين لنصر الزلاقة العظيم ، وعـدم استغلال الموحدين نصر الأرك الأعظم .

إن الخلافة الموحدية التي جردت من كل قواها ، لم تنهض من هزيمتها قط . ولم ينقطع ألفونسو ملك قشتالة ــ طول حياته ــ عن الخروج الى محاربة المسلمين ، ولكنه كان مفرق القوى ، بسبب خصومته الجديدة لليون[1] ، وكان أشد من ذلك اضطراب الممالك الاسبانية ، وهذا أدى الى تأخير الحرب بضعة أعوام ، ويرجع ذلك الى ما حدث في عروش الممالك الاسبانيـة ، حيث وقعت ثلاثة عروش نصرانية تحت سلطة الوصاية ، وكان يشغل عرش قشتالة وأراغون ــ وهما أهم الممالك في اسبانية ــ أميران قاصران . أما البرتغال ... فكان يشغل عرشها ملك يغلب لديه الدهاء والطمع ، أكثر مما تغلب عليه الشجاعة وصفات الفروسية .

وفي حينها كان سلطان الموحدين ينهار في الأندلس أولاً ، ثم ينهار بعد ذلك في المغرب ، وتقوم على أنقاضه أسر جديدة ، ولكنها لا تتشبه بالموحدين بعظمتها ومنعتها .

جـاء في نفح الطيب « جـ : ١ ، ص : ٤٢٠ » : (كـانت ــ العقاب ــ سبب ضعف المغرب والأندلس ، أما المغـرب فبخلاء كثير مـن قراه وأقطاره ، وأمـا الأندلس فبطلب العدو لها) .

★ ★ ★

---

(١) المرجع السابق ، جـ : ٢ ، ص : ١٥١ .

قائد العقاب
أبو عبد الله محمد الناصر

✶ حالف التوفيق محمد الناصر في سياسته في افريقية والمغربين الاقصى والادنى. ولكنه فشل كليا في سياسته في الاندلس .

وصف عبد الواحد المراكشي في كتابه المعجب[1] أبا عبد الله محمد الناصر أنه كان أبيض ، أشقر شعر اللحية ، أشهل العينين ، أسيل الخدين[2] ، كثير الاطراق ، شديد الصمت ، بعيد الغور ، كان أكبر أسباب صمته لثغاً كان بلسانه ، حليماً شجاعاً ، عفيفا من الدماء ، قليل الخوض فيما لا يعنيه جداً .

وبعد هزيمة العِقَاب غادر محمد الناصر ميدان الحرب الذي غص بالقتلى من جنده مسرعاً الى اشبيلية ، وهنالك سحق في بادرة غضب جميع أشياخ الموحدين المحليين ، وكذلك لم يسلم من سخطه زعماء الأندلس ، الذين كانوا في مقدمة الفارين من الموقعة ، والذين ينسب إليهم هزيمته ، فقتل منهم عدة ، وعزل منهم من كان يلي مناصب النفوذ والثقة .

---

(١) « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » ، وزارة الثقافة ، دمشق : ١٩٧٨ ، ص : ٢١٣ وما بعدها .

(٢) أسيل الخدين : أملس ومستوي الخدين .

وكما يقول يوسف أشباخ[1] : « **بيد أنه لم يذكر أن البغض يثير البغض** » •

فبعد أن صبّ جام غضبه على الأندلسيين ، عاد الى افريقية لا لكي يحشد جيشاً جديداً يسترد بـه هيبته وهيبة الموحّدين الحربية والسياسية • ولكن لكي يحاول نسيان كدره وهزيمتـه بالانغماس في ملاذّه وشهواته ، ولم يقم يومئذ بشيء من شؤون الحكم سوى أن عيّن لولاية عهده ولـده أبا يعقوب يوسف الملقب بالمستنصر بالله ، وكان يومئذ طفلاً في العاشرة من عمره • ولما انتهى من هذا التعيين ، ترك شؤون الحكم كلها للطفل ووزرائه ، واعتكف في قصره وحدائقه بمراكش ، وأطلق العنان لأهوائـه وملاذه ، وقضى هذا الأمير الذي كان يشغف بالحرب والجهاد ، أمداً قصيراً لا يجاوز العام في هذا اللهو الصاخب • ثم دسّ له خدمه السم[2] ، وتوفي أبو عبد الله محمد الناصر مسموماً بأمـر وزرائه ، وكما في روض القرطاس : لأنه كان قد عزم على قتلهم ، فعاجلوه بالقتل • فمات ولما يجاوز الرابعة والثلاثين من عمره ، في ١١ شعبان ٦١٠ هـ / ٢٥ كانون الأول « ديسمبر » سنة ١٢١٣م ، بعد أن حكم خمسة عشر عاماً وبضعة أشهر •

★ ★ ★

(١) « تاريخ الأندلس •• » ، ج : ٢ ، ص : ١٥٢ •

(٢) راجع « روض القرطاس » صفحة : ١٦٠ •

نظرات في حياة محمد الناصر

لقد اعترضت حياة محمد الناصر مشاكل كثيرة ، منها ماذكرناه في فتنة ابن غانية مفصلاً . وظهر بالسوس ـ جنوب المغرب ـ ثائر" من جزولة ، يدعى عبد الرحمن بن جزارة[1] ، فادعى المهدوية ، وتبعه كثيرون من أهل السوس ، وتمكّن الناصر من القضاء عليه ، وقتله ، وأمر بصلبه في مراكش .

فالملاحظ أن التوفيق حالف محمد الناصر في سياسته بافريقية والمغربين الأقصى والأوسط ، وتمكن من انهاء حكم المرابطين في جزر البليار . ولكن حرب بني غانية كلّفته ثمناً باهظاً ، وأحسن محمد الناصر في تعيينه والٍ ذا شخصية قوية على افريقية ، ولكنه فشل كلياً في سياسته بالأندلس .

لقد أصبح ألعوبة في يد وزيره ابن جامع[2] ، الذي لم يكن مسؤولاً عن هزيمة العقاب فقط ، بل عن مصير الموحدين بعد الناصر أيضا ، لقد وضع ابن جامع الأسباب القوية التي أدّت الى تصدّع سلطان الموحّدين من أسسه .

لقد كُتِبَ لأسرة ابن جامع التي تولى كثير منها منصب الوزارة ، وعلى رأسها أبو سعيد بن جامع أن تلعب أخطر دور

---

(١) في ابن خلدون : «عبد الرحيم بن عبد الرحمن » .

(٢) اسمه كاملا : أبو سعيد عثمان بن عبد الله بن ابراهيم بن جامع .

في تحطيم دولة الموحّدين ، بمشاركة الأعراب البدو ، وأشياخ الموحدين .

ويكفي أن نذكر هنا أن قائد قلعة رباح أبا الحجاج يوسف ابن قادس استنجد بأبي عبد الله محمد الناصر قبل وأثناء حصار النصارى للقلعة ، ولكن الوزير الذميم ابن جامع كان يتلقّف رسائل البطل المخلص ابن قادس ، ليخفيها عن محمد الناصر ، حتى لا يتحرك قبل فتح حصن سلبطرة ، ولما لم يحصل ابن قادس على جواب ، وعجز عن مقاومة عشرات الألوف من جيوش النصارى ، سلّم القلعة بشروط شريفة ، ورجع الى محمد الناصر ليتابع ومن معه حروبه ضد النصارى ، فأغوى ابن جامع أبا عبد الله محمد الناصر بقتله ، فقتله . وهذا ما جعل الأندلسيين يحقدون على الموحّدين ، ويعتزلون الحرب حتى النهاية ، بل إن ابن جامع هو الذي دعاهم الى اعتزال سائر الجيش بغضاً لهم[1] .

لقد تصرف ابن جامع ــ الذي يمثل بطانة السوء ــ بدولة الموحّدين ، فكان له أثره الخطير ، ليس في ميدان السياسة الداخلية والخارجية للدولة فحسب ، بل على وجود دولة الموحدين نفسها .

ابن جامع .. من الشخصيات الغامضة ــ والمزاودة ــ التي تدخل في مصير الشعوب ومقدرات الدول ، تبدي غير ماتخفيه[2]، من الشخصيات التي تكلف بمهمات خطيرة ، أولاها التخريب

(١) المغرب عبر التاريخ ، جـ : ١ ، ص : ٢٩٥ .

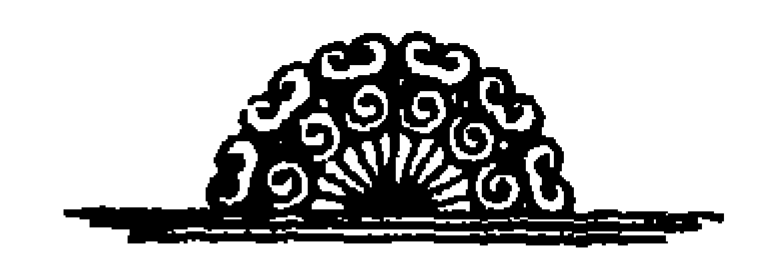
(٢) علما ان ابن جامع اسباني الاصل !! « راجع المغرب عبر التاريخ » جـ : ١ ، ص : ٢٩٠ .

والتدمير من الداخل ، كما فعل فيما بعد ابن العلقمي في الخلافة العباسية ، حيث أظهر الاخلاص واضمر الخبث ، وتتكرر الصورة ذاتها برسائل التتر ، واخفائها عن الخليفة المستعصم ، والهدف واحد .. تقويض أركان الدولة .

وهذا ما جرى في الخلافة العثمانية أيضا ، عندما تصدّر وظائفها الكبرى يهود الدونمة ، بعد أن ادعوا الاسلام وتسموا بأسماء أعلامه !![1] .

* * *

ومما يستحق الذكر هنا أيضاً ، أن محمد الناصر ، بعث إليه جون « يوحنا » ملك انكلترا في سنة ١٢١٣ م ، بسفارة يقدم إليه فيها ملكه وحياته ، ويتعهد بدفع جزية كبيرة ، وبنبذ النصرانية ، وباعتناق الاسلام ، إذا أمده بالجند لمحاربة أعداء انكلترا في أوربة ، ولكن سلطان الموحدين لم ير في ذلك العرض غنماً يذكر ، فرفض مقترحات الملك جون بكبرياء وازدراء[2] .



(١) راجع كتابنا « عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الاسلامي » فصل : المنهزمون بسبب بطانة السوء .

(٢) « تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين » ، ج : ٢ ، ص : ١٥٣ .

سقوط الموحدين

★ بدأ بعد « العقاب » سنة ٦٠٩ هـ ، وانتهى عام ٦٦٨ هـ بانتصار المرينيين على ابي دبوس « ادريس » قرب مراكش .

بدأت دولة الموحّدين تنحدر سريعاً ، حتى أنه لم يكن من الميسور على سلطان منهم أن يوقف هذا التدهور . وليس أخطر على دولة ممزّقة من حكم صبي قاصر هو يوسف بن محمد الناصر، بل إن الدول القويّة المنظّمة كثيراً ما تنهار من جراء ذلك في أعوام قليلة ، فما بالك بدولة قد أخذت منذ حين تتمزق الى عناصر خصيمة ؟!؟

لقد مرّت دولة الموحّدين بأدوار ثلاثة هي[1] :

أ ــ دور نشوء وتأسيس ، ويتمثّل بالمهدي بن تومرت ، وعبد المؤمن بن علي .

ب ــ دور العظمة ، ويتمثّل بأبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، ويعقوب المنصور ، وبداية عهد محمد الناصر .

---

(١) راجع : « المغرب عبر التاريخ » ، ج : ١ ، من ص : ٢٩٦ وحتى ص : ٣٠٤ .

جـ ــ دور الضعف والسقوط ، وبدأ بعد هزيمة العقاب ، وحكم فيه :

١ ً ــ المستنصر يوسف بن محمد الناصر ، بويع بعد وفاة أبيه ، وهو ابن احدى عشرة سنة ، أي أنه عند توليته كان أعجز مايكون عن تدبير الملك ، فكان آلة مسخَّرة في يد أبيَ سعيد بن جامع ، حتى أن عبد الواحد بن أبي حفص عامل افريقية رفض مبايعته بسبب صغر سِنّه ، ثم بايعه مضطراً ليحفظ بذلك وحدة المملكة .

كان المستنصر شبيهاً بجدّه أبي يوسف ، ولكن شتان بين الشخصيتين نفوذاً وحزماً .

وفي عهده ظهر رجل ادعى أنه حفيد العاضد آخر الفاطميين ، وتسمَّى بالمهدي ، فقاتله الموحِّدون وقتلوه . وظهر بنو مرين ما بين بسكرة وسلجماسة ــ في الجزائر حاليا ــ فشكَّلوا خطراً حقيقياً على الدولة .

وفي الأندلس سقطت هيبة الموحِّدين مع الزمن ، وانهزم جيشهم انهزاماً مريعاً أمام قصر أبي دابس ، الذي اقتحمه النصارى عنوة ، وقتلوا كل من كان به من المسلمين ، ولم يتحرك المستنصر قط من المغرب ليراقب بنفسه الحالة في الأندلس ، ويُسَيِّر بها العمليات الحربية[1] .

---

(١) وليشاهد عن كثب ما يعمله عمه ابو علي والي اشبيلية الذي شغف بجمع المال ، فاخذ يبيع المناصب بما فيها مناصب القضاة ، فاسخط بذلك العلماء والفقهاء .

وفي افريقية عاد يحيى بن غانية الذي كان ملتجئاً بالصحراء الى الظهور ، ولكنه قُتِل أثناء معركة ضد الموحّدين قرب « مليانة » ، ووالى بعده أبناؤه التمرد في نطاق ضيق ، حتى أتى عليهم الأسر أو القتل جميعاً .

أهمل المستنصر شؤون الدولة في أواخر حياته ، ومال الى هواية جمع الحيوانات وتربيتها ، حتى طعنته بقرة شرود في صدره ، فهلك سنة ٦٢٠ هـ ، وهو ما يزال في ريعان شبابه .

٢ – **عبد الواحد المخلوع** : بايع الموحّدون بتدبير من ابن جامع المنصور أخا المستنصر ، وهو المدعو بعبد الواحد ، فخلعه ابن أخيه عبد الله بن المنصور ، ثم قُتِل خنقاً سنة ٦٢١ هـ ، وأصبح أشياخ الموحّدين يقتلون ملوكهم بعده كلما امكنتهم الفرصة .

٣ – **عبد الله العادل** : بويع له بمرسية في الأندلس سنة ٦٢١ هـ ، ولكن انقلب ضده عدد من ولاة الأندلس ، حتى أن والي بياسة تحالف مع قشتالة ، وقدّم لملكها فرديناند بعض الحصون ، وعقد صلحاً معه .

ولما قامت ثورة الأعراب بناحية مراكش ، انتهز ولاة الأندلس الفرصة وقاموا بثورة ، ولما رفض العادل التنازل عن العرش ، مات خنقاً سنة ٦٢٤ هـ .

٤ – فخلفه أخوه **ادريس المأمون** وكان حازماً ، فبذل

جهوداً جبارة لاقرار الهدوء بالبلاد ، وسعى جاهداً للقضاء على الثوار الطامعين في الملك ، ولم تسنح له الظروف ليستعيد مجد الدولة ، فتوفي سنة ٦٣٠ هـ •

٥ً ــ بويع من بعده ابنه عبد الواحد الرشيد ، وفي عهده حاصرت سفن جنوه سنة ٦٣٢ هـ مدينة سبتة لمدة سنة ، ولم يرفع الحصار عنها إلا بفدية بلغت أربعمائة ألف دينار •

وفي عهده أيضاً سقطت قرطبة بيد النصارى ، وتفاقمت الأحوال خطورة بالمغرب بسبب الهزائم التي تكبدتها جيوش عبد الواحد أمام بني مرين • وانتهت حياة الرشيد غرقاً سنة ٦٤٠ هـ •

٦ً ــ بايع الموحّدون بعد موته أخاه علي السعيد الذي هدف الى القضاء على حركات المتمردين على الدولة ، فخرج من مراكش سنة ٦٤٥ هـ بقصد اخضاع مكناسة وبني مرين ثم تلمسان ، وأخيراً افريقية • وبعد اخضاع مكناسة ، ومهادنة المرينيين ، سار نحو تلمسان ــ وصاحبها في حينه يغمراسن[1] ــ ، فخرج في أحد الأيام يطوف بنفسه مستكشفاً أحوال القلعة ــ قلعة تلمسان ــ فشاهده بعض الحراس فقتلوه • فغنم يغمراسن ماتركه الموحدون من غنائم بعد مصرع السعيد في صفر ٦٤٦ هـ • وفي رجوع بقية الموحدين بقيادة الامير عبد الله بن السعيد داهمهم المرينيون ، وقتلوا الأمير ومن معه ، وأخذوا ما معهم •

---

(١) قام يغمراسن بحركة استقلالية ، فتحصن بقلعة تلمسان •

٧ً ـ **عمر المرتضى :** بايع الموحدون بعد وفاة السعيد عمر المرتضى أحد أحفاد يوسف بن عبد المؤمن . وفي عهده استولى بنو مرين على فاس ، وثارت سبتة بزعامة أبي القاسم العزقي ، ووقعت ثورة بالسوس سنة ٦٥١ هـ ، وفي سنة ٦٦٢ هـ حاصر المرينيون مراكش ، واضطر المرتضى الى دفع جزية .

ثم خرج ادريس أبو دبوس من سلالة عبد المؤمن عن طاعة المرتضى ، فوضع يده في يد أمير المرينيين واسمه « يعقوب » ، واستنصر به على حرب المرتضى مقابل مشاطرته ما يحصل عليه من الغنائم والأموال ، فأمده بجيش قوامه خمسة آلاف مقاتل ، وانضمت اليه قوات أخرى من العرب والموحدين ، واقتحم مراكش سنة ٦٦٦.هـ ، بينما نجا المرتضى بنفسه ، فلجأ الى صهره بآزمور ، فاعتقله ثم أخبر به أبا دبوس الذي بعث إليه من اغتاله .

٨ً ـ **ادريس أبو دبوس « الواثق » :** « ٦٦٥ ـ ٦٦٨ هـ »:

نقض أبو دبوس اتفاقه مع يعقوب أمير بني مرين ، وحاول خديعته باتفاق مع يغمراسن لمناوشة المرينيين من ناحية الشرق ، حتى تتوزع جهودهم وجيوشهم، ولكن المرينيين هزموا الموحدين، وقتلوا أبا دبوس قرب مراكش .

وعبثاً حاول الموحدون تنصيب ملك جديد ، وهو اسحق بن أبي ابراهيم ، ولكن المرينيين قتلوه كما قتلوا أولاده ، والتجأ الموحدون الى تينملل ، لتظهر دولة جديدة في تاريخ المغرب هي دولة بني مرين .

* * *


أقاليم المغرب والأندلس
في عهد الموحدين
فرنسة
ليون
سرقسطة
قشتالة
شنترين
طليطلة
قرطبة
إشبيلية
مالقة
جزر البليار
البحر المتوسط
صقلية
سيراكوزا
مالطة
المحيط الأطلسي
جبل طارق
طنجة
سبتة
مليلة
وهران
بجاية
عنابة
تونس
القيروان
قسنطينة
سوسة
المنستير
المهدية
صفاقس
قابس
طرابلس الغرب
وجدة
تلمسان
الريف
فاس
تازا
مكناس
سلا
رباط الفتح
إقليم فاس
إقليم تلمسان
إقليم بجاية
الجريد
إقليم مراكش
إقليم سجلماسة
مراكش
تارودانت
إقليم السوس
إقليم إفريقية
الصحراء الكبرى
مصر

خاتمة

أسباب سقوط الموحدين

* « ولكل امة اجل فاذا جاء اجلهم لا يستاخرون ساعة ولا يستقدمون » .

« الأعراف : ٣٤ »

تضافرت عوامل الفشل والاخفاق ، ومن ثمَّ السقوط على الدولة الموحِّدية ، وذلك منذ هزيمة العِقاب بخاصة . ويمكن أن نذكر منها :

١ — فتنة بني غانية ، التي استمرت حتى أيام المستنصر ، وأخذت هذه الفتنة مجهوداً كبيراً من الموحِّدين .

٢ — الأعراب « البدو » ، الذين قدموا الى المغرب الأقصى أيام المنصور الموحِّدي[1] سنة ٥٨٤ هـ ، ومنذ وفاة المنتصر سنة

(١) يروي ابن أبي زرع أن المنصور لما اشرف على الموت قال : « ما ندمت على شيء فعلته في خلافتي الا على ثلاث ، وددت اني لم أفعلها الاولى : ادخال العرب من افريقية الى المغرب ، مع أني اعلم انهم أهل فساد ، والثانية بناء رباط الفتح ، انفقت فيه بيت المال وهو بعد لا يعمر ، والثالثة اطلاق اسارى الأرك ، ولا بد لهم ان يطلبوا بثارهم » .

وقد صدق حدس المنصور في الاولى والثالثة ، اما الثانية فقد كتب لرباط الفتح ان يعمر ، ولكن بعد قرون من وفاته .

٦٢٠ هـ ، أصبحوا يتدخلون في شؤون الدولة ويرهقونها بطلباتهم، ويعملون بدورهم على عزل وتولية بعض ملوك الموحدين •

من هؤلاء الأعراب « بنو معقل ، وبنو جابر » ، ولهؤلاء دور هام في تعريب قسم هام من سكان المغرب على سواحل الأطلسي، بمصاهرتهم للبربر ، وبالاحتكاك بهم •

٣ً ــ هزيمة العِقَاب : إن ذيول الهزيمة المُرّة فيالعِقَاب، أضعفت معنويات جيش الموحّدين ، واكتسبت سياسة الموحّدين الحربيّة بعدها ، صفة دفاعية محضة ، ومع ذلك استولى النصارى بعدها على حصن القصر ، والقنطرة في عهد المستنصر ، وماردة وبطليوس سنة ٦٢٧ هـ ، ثم المريّة وقرطبة سنة ٦٣٦ هـ في أواخر عهد ادريس المأمون •

ولم يستطع الموحّدون بعد العِقَاب أن يعدّوا جيشاً كالذي أعدوه لها ، كل ذلك بسبب ابن جامع ، المسؤول الوحيد عن هزيمة الموحّدين الشنيعة في العقاب •

٤ً ــ مشكلة العرش : لقد ظهر التنافس على العرش جلياً في مراكش ، لعدم وجود نظام ثابت لولاية العهد ، منذ أن أقام عبد المؤمن دعائم الدولة ، فبينما كان الملوك مشغولين بالقضاء على أدعياء العرش الذين كانوا يستنصرون بالبدو أو بالبربر ، كان على ملوك الموحّدين أن يوجّهوا جهودهم الى تسيير الشؤون الداخلية ، والاهتمام بثورات أخطر شأناً[1] •

---

(١) راجع اسباب السقوط مفصلة في « المغرب عبر التاريخ » ، ج : ١ ، ص : ٣٠٥ •

٥ً ـ ثورات الأندلس : الذين كانوا يمدون أيديهم الى النصارى متعاونين معهم ضد الدول المغربية التي كانت تحسن إليهم أيام الشدة ، وفي أوقاتهم العصيبة •

ومن هذه الثورات : ثورة ابن مردنيش الذي لم يتم القضاء عليه الا بعد ربع قرن من تحالفه مع النصارى •

وثورة ابن هود ، وعامل بلنسية الذي التجأ الى ملك ليون•

وتقاعس الأندلسيون عن نصرة الموحّدين لأول فرصة واتتهم ، عندما أهانهم ابن جامع خلال معركة العِقَاب • ومنذ ذلك الحين ، والأندلسيون يستنصرون على إخوانهم في الدين والوطن بالنصارى ولقد رأينا ذلك أيام المرابطين ثم الموحّدين •

أما في عهد المرينيين ، فقد أصبح تعاون بني الأحمر مع العدو أشد خطراً على الأندلس ، وعلى مستقبل المغرب أيضاً •

ولا ننسى أن النصارى لم ينقطعوا عن مهاجمة أراضي الأندلس ، وزاد في جرأتهم ماكانوا يصيبونه من الغنائم الكبيرة ، فقد كانت فرسانهم تتقدم حتى أبواب اشبيلية وقرمونة ، وهم يخرّبون وينتسفون كل ما على وجه الأرض التي وطئتها أقدامهم• ولم تكن قسوتهم الوحشية قاصرة على المحاربين من خصومهم ، بل كانت تشمل النساء والأطفال والشيوخ ـ كما يقول يوسف أشباخ ـ • وكان الموحّدون يقاتلون قتال اليأس ، وقد فقدوا في النهاية كل شجاعة وكل ثقة في قوتهم ومنعتهم •

وعجّل باضمحلال سيادة الموحّدين في اسبانية عودة السلام بين قشتالة وليون ، واضطرام الخصومة حول العرش في أسرة الموحّدين . فبينما كان الاسبان الظمئون الى القتال يغزون الأراضي الاسلامية ويقتنصون الغنائم ، كان سلطان الموحّدين المستنصر ـ خلافاً لأسلافه المحاربين ـ يعتكف في قصره بمراكش منغمساً في اللهو والترف ، مع أنه لم يجاوز الحادية والعشرين ، فقد ذبلت صحته وتحطّمت أعصابه من جراء اللهو العنيف ، فدنا سراعاً من القبر ، ولقيت حياته اللاهية نهاية غير مجيدة كما ذكرنا سابقاً ، فقد توفي بين أبقاره وهو يروّضها ، إذ هجمت عليه بقرة شرود منهن ، وضربته بقرنيها في موضع القلب ، فتوفي لساعته يوم ١٣ ذي الحجة ٦٢٠ هـ / ٦ كانون الثاني «يناير» ١٢٢٤ م[1].

والواقع أن المستنصر نفسه لا يحمل تبعة خلاله السيئة وفشله في الحكم ، ذلك أن أقاربه وابن جامع الخبيث يدفعون به الى اللهو ، ويجعلونه غير أهل لأي عمل جدي ، وذلك لكي ينتزعوا مقاليد الحكم لأنفسهم من هذا الفتى القاصر ، وأراد ابن جامع أن يحقق غايته ، فوضع المملكة في الفوضى وفي حرب أهلية نزاعاً حول العرش .

كل ما سبق .. عجّل باضمحلال سيادة الموحّدين في الأندلس ، مع اشتداد الخطر المسيحي باتحاد مملكتي أراغون وقشتالة ، ونشوء مملكة البرتغال ، التي استعانت بجيوش صليبية

(١) روض القرطاس ، ص : ١٦١ .

أوربية في الاستيلاء على عدد من المدن والحصون غربي الأندلس.

وهذا الخطر الصليبي كان يمكن تلافيه لو ظلت الدولة والأحوال سليمة في الداخل.

٦ً ـ انفصال إفريقية وتلمسان : تسرّع ادريس المأمون في إلغاء مذهب الدولة الذي كان يستند على تعاليم المهدي بوصفه الإمام المعصوم ، وأمر بلعنه على المنابر ، فأثار غضب شيوخ الموحّدين ، وعمال الدولة ، وكانت تلك أيسر فرصة مكّنت الحفصيين من الاستقلال بافريقية كما استبد بنو عبد الواد الزناتيين بتلمسان . وبذلك فَقَدَ الموحّدون بانفصال افريقية وتلمسان مورداً قوياً كان يمدهم بالنجدات والأسلحة .

* * *

وهكذا قدّمنا انتصار « الزلاقة » الذي حققه المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين ، ورأينا كيف انتهى حكم المرابطين الملتزم بدين الله عز وجل ، كحلم سعيد مرّ على الأندلس والمغرب ، بعد أن سجل في تاريخ الاسلام فخراً لا يقدر بثمن .

وقدمنا بعد الزلاقة ، انتصار الموحدين في حصن الأرك بقيادة يعقوب المنصور الموحّدي ، فكان « الأرك » يوما مشهودا من أيام الاسلام ، اهتزت له قلوب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها .

وهذه هي آخر صفحات « العِقَاب » المعركة المرّة ، التي خسرها محمد الناصر بسبب حاشية السوء ، وبطانة الخبث من جهة ، وبسبب ضعف شخصيته أمام هذه البطانة من ناحيةأخرى .

هذه المعركة الأليمة ، لم يذكر عنها ابن الأثير في « الكامل في التاريخ » كلمة واحدة في أحداث سنة ٦٠٩ هـ . وذكرها « نفح الطيب » بعبارات أليمة مقتضبة جداً ، وهذا مافعله ابن خلدون أيضاً .

لذلك اعتمدنا في هذا الجزء على بضع مراجع ، أهمها :

١ - « تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين » ليوسف أشباخ ، بشكل رئيسي .

٢ - « المغرب عبر التاريخ » ، ابراهيم حركات ، الجزء الأول .

٣ - « التاريخ الأندلسي » ، د. عبد الرحمن علي الحجي .

٤ - المُعجب في تلخيص أخبار المغرب « دولة الموحّدين » ، لعبد الواحد بن علي التميمي المراكشي .

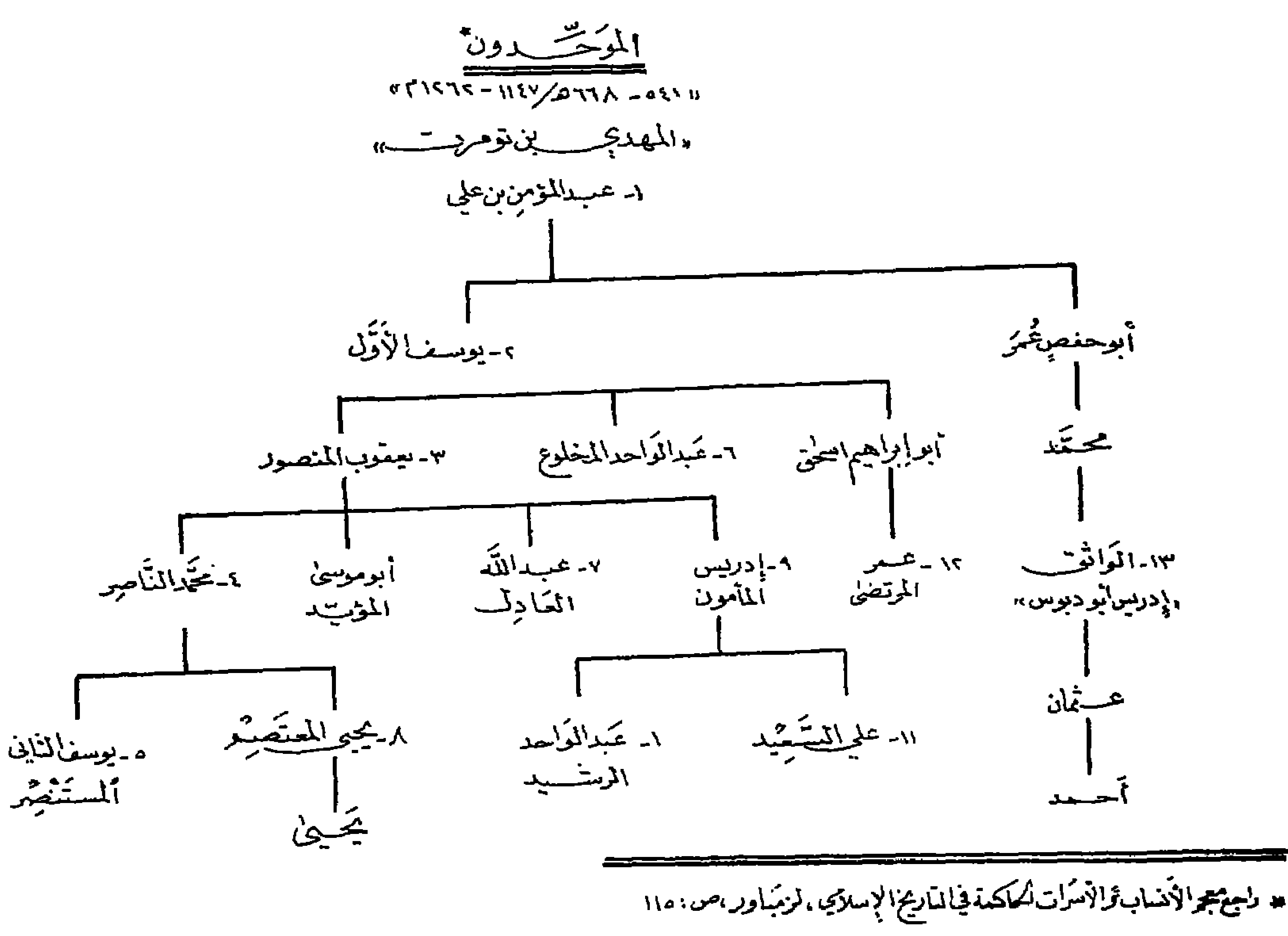
٥ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس شمس الدين بن خلكان .

٦ - الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، للشيخ أبي العباس أحمد بن خالد الناصري .

أسأله عز وجل أن أكون وفقت فيما قدمت

والحمد لله رب العالمين أولاً وآخراً ...

الموحدون*



* راجع معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، لزمباور، ص: ١١٥

المحتوى

الصفحة

للمؤلف

١ ـ الإسلام في قفص الاتهام (ترجم إلى الفارسية)

٢ ـ مَنْ ضيَّع القرآن ؟

٣ ـ الإنسان بين العلم والدين

٤ ـ هارون الرشيد

٥ ـ غريزة .. أم تقدير إلهي ؟

٦ ـ آراء يهدمها الإسلام

٧ ـ الإسلام وحركات التحرر العربية

٨ ـ عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي

٩ ـ الهجرة « حدث غيَّر مجرى التاريخ »

١٠ ـ جرجي زيدان في الميزان

☆ ☆ ☆

سلسلة

«المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام»

١ ـ القادسية بقيادة سعد بن أبي وقاص

٢ ـ اليرموك بقيادة خالد بن الوليد

٣ ـ نهاوند بقيادة النعمان بن مقرِّن المزني

٤ ـ ذات الصواري بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح

٥ ـ فتح الأندلس بقيادة طارق بن زياد

٦ ـ بلاط الشهداء بقيادة عبد الرحمن الغافقي

٧ ـ فتح صقلية بقيادة أسد بن الفرات

٨ ـ الزلاقة بقيادة يوسف بن تاشفين

٩ ـ الأرك بقيادة المنصور يعقوب الموحِّدي

١٠ ـ العقاب بقيادة محمد الناصر بن يعقوب الموحِّدي

١١ ـ مصرع غرناطة « أبو عبد الله الصغير آخر ملوك بني الأحمر »

☆ ☆ ☆

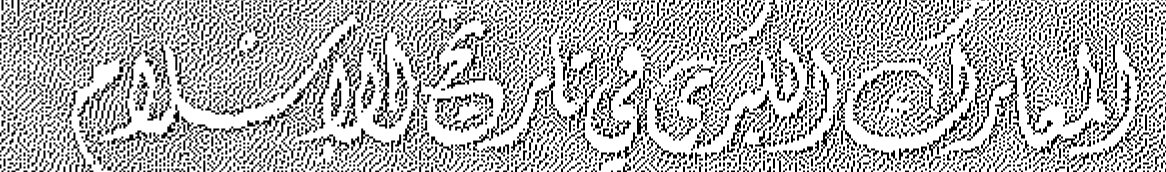
غزوات الرسول الأعظم

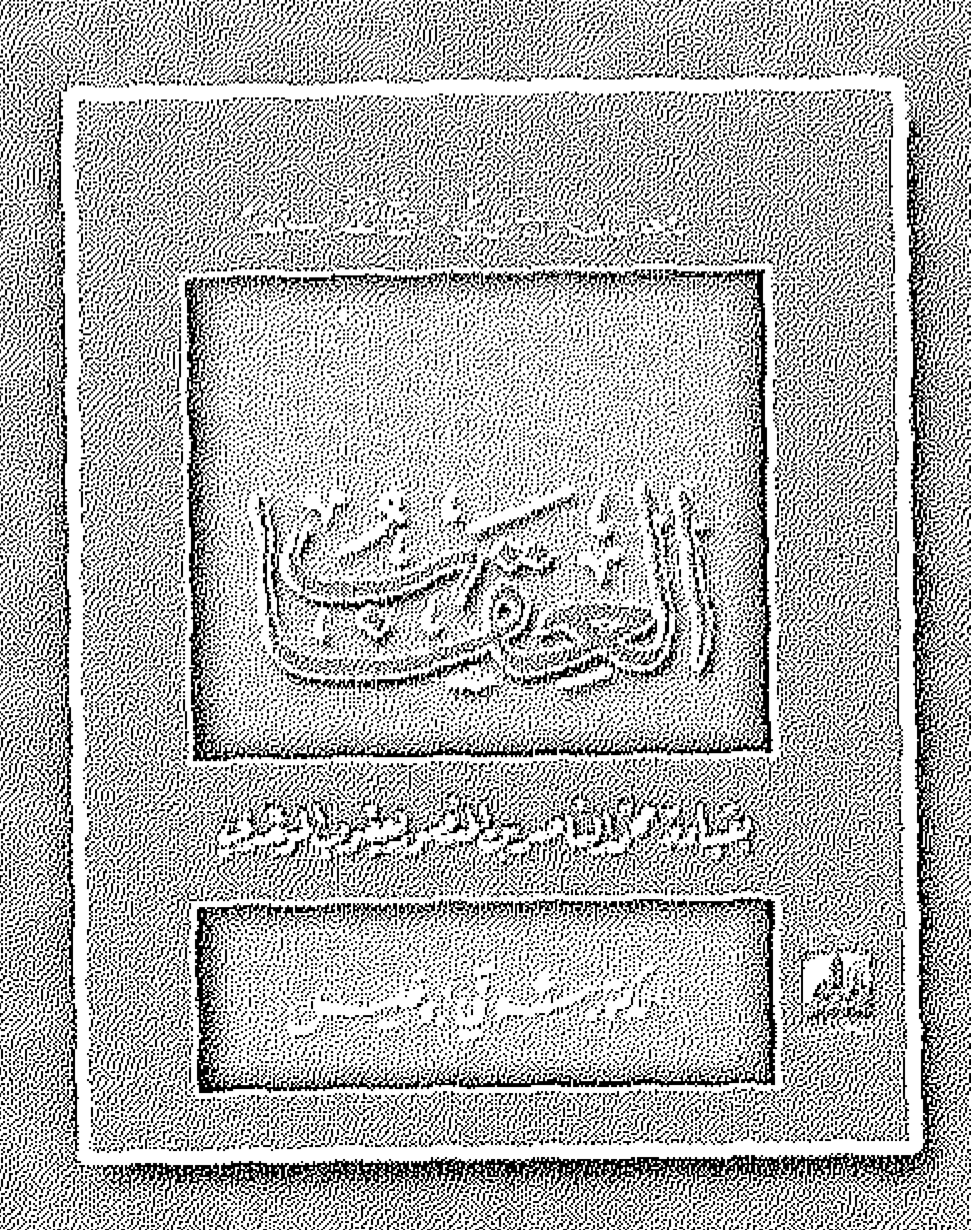
بَدر الكبرَى	:	رمضان ٢ هـ ـ كانون الثاني ٦٢٤م
غزوَة أُحُد	:	شوال ٣هـ ـ كانون الثاني ٦٢٥م
غزوَة الخندق	:	شوّال ٥هـ ـ شباط ٦٢٧م
صلح الحديبيَة	:	ذي القعدة ٦هـ ـ شباط ٦٢٨م
غزوة خَيبَر	:	المحرّم ٧هـ ـ آب ٦٢٨م
غزوة مؤتة	:	جمادى الأولى ٨هـ ـ إيلول ٦٢٩م
فتح مكة	:	رمضان ٨هـ ـ كانون الثاني ٦٣٠م
حُنَين والطائف	:	شوّال ٨هـ ـ شباط ٦٣٠م
غزوة تَبُوك	:	رجب ٩هـ ـ تشرين الأول ٦٣٠م
«حُروبُ الرِّدَةِ»	:	«في خلافة الصّديق سنة ١١هـ»

THE GREATEST BATTLES IN THE HISTORY OF ISLAM

Al-‘Iqāb

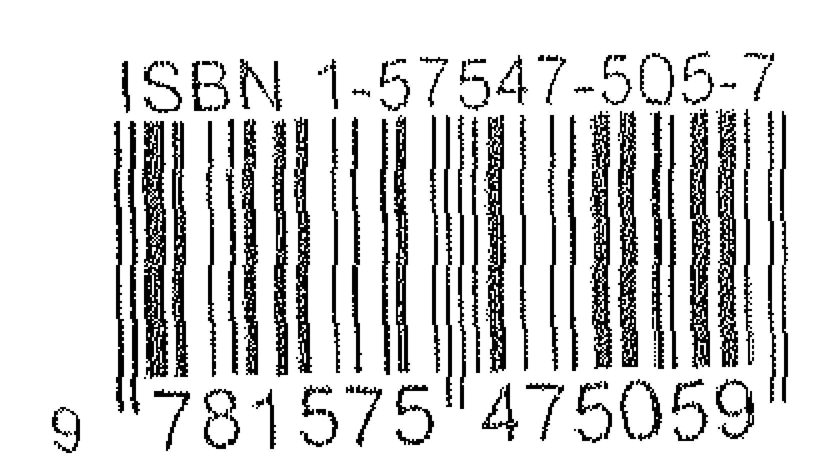
Dr.Shawqī Abū Khalīl





- الأرك .
- بلاط الشهداء .
- ذات الصواري .
- الزلاقة .
- العقاب .
- عمورية .
- فتح الأندلس .
- فتح الديبل .
- فتح سمرقند .
- فتح صقلية .
- القادسية .
- مصرع غرناطة .
- نهاوند .
- وادي المخازن .
- اليرموك .

DAR AL-FIKR
3520 Forbes Ave., #A259
Pittsburgh, PA 15213
U.S.A
Tel: (412) 441-5226
Fax: (412) 441-8198
e-mail: fikr@fikr.com
http://www.fikr.com/


ISBN 1-57547-505-7
9 781575 475059